توني موريسون

حائزة جائزة نوبل للآداب

رحمة

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

قلد باراك أوباما الكاتبة توني موريسون وسام الحرية لعام ٢٠١٢، لمساهماتها الاستثنائية للمجتمع.

رحمة

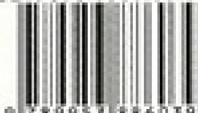
نساءٌ غارقات في الحرمان واللهفة.. رجالٌ منشغلون بالسيادة والتملّك.. حبٌ وأحلام وصراعات تزيح الستائر عن المجتمع الأميركي في القرن السابع عشر حيث يسود الاستعمار وحيث يتمسّك الشعب بهويّته ويقاوم ثقافة مُستعمرٍ تُفرض عليه بالقوّة.

رواية مؤثّرة، كُتبت بنفس شاعري وقصصي وتأريخي في آن. ألقت نظرة إنسانية بامتياز على عالم تتفشّى فيه الطبقيّة والعرقيّة وتجارة الرقيق والانقسامات الدينية والظلم والفقر الذي يدفع إلى كل منكر ويبيح كل محظور.

أبطال يتبارزون بالقبضات والنبضات في خبايا نظام مترصّد وقامع، تجمعهم قصص تتميز بالجمال والغرابة والشغف والحساسية.

إنها قصص غامضة [illegible] وواضحة [illegible] تنتقل من عالم عدائي ووحشي إلى عالم مسالم ورحيم.

ISBN 978-9953-88-603-9



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥-١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون ٧٥٠٨٧٢ - ٠٩٦١١٣٥٠٧٢٢
تلفون-فاكس ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٩٦١١٧٥٢٥٤٧

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-603-9

Originally published as: A Mercy.

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق لغوي: وفيق زيتون - فؤاد زعيتر

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: بسمة تقي

صورة الغلاف: © Zakwitnij!pl Ejdzej & Iric

http://flickr.com/people/zakwitnij/

إلى ر. ج.

شكراً على عقود من الفطنة، وعمق النظر، والفكر.

لا تخفْ. فلا يمكن أن تصيبك روايتي بأي أذى برغم ما قمتُ به. أعِدُك بأن أستلقي بهدوءٍ في الظلام. ربما أنتحب، أو أرى من وقت لآخر الدم من جديد، لكنني لن أثني أعضائي أبداً عن النهوض ولن أكشّر عن أسناني. سأشرح. ربما تعتقد، إذا شئت، أن ما أخبرك به هو بمثابة اعتراف، إلا أنه اعتراف مليء بالغرائب المألوفة في الأحلام فقط، وفي تلك الهُنيهات التي يلعب فيها ظلّ كلبٍ في بخار الغلاّية، أو عندما تميل دمية مصنوعة من أوراق الذُرَة سريعاً في زاوية الغرفة بعدما كانت تجلس على أحد الرفوف، وواضح سرّ وصولها إلى هناك. فالأمور الغريبة تحصل في أي وقت وفي أي مكان. أنت تعرف، وأنا أعرف أنك تعرف. وأحد الأسئلة هو: من المسؤول؟ والسؤال الآخر هو: هل يمكنك القراءة؟ فإذا رفضت أنثى الطاووس احتضان البيض، فسوف أقرأ ذلك سريعاً، ومن المؤكد أنني سأرى في تلك الليلة الأم التي لي واقفةً يداً بيد مع صبيّها الصغير، وحذائيَ محشوراً في جيب مئزرها. تحتاج الإشارات الأخرى إلى مزيد من الوقت لإدراكها، وتوجد في

الغالب إشارات كثيرة جداً، أو أنه سرعان ما يُصاب الفأل المشع ويتحوّل إلى سحبٍ داكنة. أصنّفها كلّها وأحاول أن أتذكّر، وأعلم أنه يفوتني برغم ذلك الكثير، مثل عدم قراءة أفعى الحديقة تزحف حتى عتبة الباب لتموت. دعني أبدأ مما أعرفه بالتأكيد.

يبدأ كل شيء مع الأحذية. لم أتمكّن أبداً، وأنا طفلة، من تحمّل كوني حافية القدمين، ولطالما توسّلت للحصول على حذاء، حذاء أيٍّ كان، حتى في أشد الأيام حرارة. تقطّب أمّي، الأم التي لي، حاجبيْها، وتغضب لِمَا تقول إنها أساليبي في تجميل الأمور. وحدهن النساء السيئات ينتعلن الأحذية ذات الكعوب العالية. تقول عني أنني خطيرة وجامحة، لكنها تلين وتدعني أنتعل زوجَي الأحذية المرميين من منزل السنيورة، وهما مروّسان عند الأصابع، وقد كُسر أحد الكعبين العاليين، والفردة الأخرى تالفة ولها «بكلة» في الأعلى. ونتيجة لذلك، تقول لينا «باتت قدماي بلا فائدة، وستكونان على الدوام طريّتين وغير خبيرتين بمسالك الحياة، وتفتقران إلى باطن القدم القوي، الأقسى من الجلد، الذي تتطلبه الحياة». ولينا على حق. فلورانس، تقول، إنه العام ١٦٩٠. ومن غيرك، في هذه الأيام، يملك يديْ عبد وقدميْ سيدةٍ برتغالية؟ وهكذا، عندما انطلقتُ للبحث عنك، أعطتني هي والسيّدة، جزمة السيّد التي تلائم رَجلاً وليس فتاة. حشتاها بالتبن وبقشر الذّرَة المزيّت، وطلبتا مني إخفاء الرسالة داخل جوربي الطويل، برغم ما يسببه شمع الختم من حكاك. أعرف الأحرف، إلا أنني لم أقرأ ما خطّته

السيّدة. أما لينا وسورّو فلا تستطيعان، لكنني أعرف ما سأقوله لكل من يستوقفني عمّا تعنيه.

أصابني التشوّش من أمرين بالدوار: الشوق إليك، والخوف من أنني قد أتوه. ما من شيء يخيفني أكثر من هذه السفرة، وما من أمر أكثر إغراءً منها. فمن يوم اختفائك وأنا أحلم وأخطّط، لأعرف أين أنت، وكيف الوصول إلى هناك. أريد أن أختصر الطريق عبر الشاطئ والصنوبر الأبيض، إلا أنني أسأل نفسي: في أي اتجاه أركض؟ من سيقول لي؟ من يعيش في هذه البراري بين المزرعة وبينك، ومن الذي سيساعدني أو يؤذيني؟ وماذا عن الدّببة الخالية من العظام في الوادي؟ أتذكر؟ كيف بدا الأمر عندما سلخوا فروها، كأن لا شيء من تحتها؟ رائحتها تنافي جمالها. عيونها تعرفنا من يوم كنا نحن حيوانات أيضاً. وأنت تقول لي إن هذا هو السبب الذي يجعل النظر في عينيْها قاتلاً. فهي ستقترب، وتركض إلينا بدافع المحبة ورغبة في اللعب، وهو ما نسيء فهمه، ونردّ عليها بالخوف والغضب. وتوجد أيضاً طيور عملاقة، أكبر من الأبقار، تعشّش هناك أيضاً. تقول لينا، «ليس كل أولاد البلد مثلها، ولهذا عليّ أن أنتبه». يطلق عليها الجيران اسم المتوحشة المصلّية، لأنها لو كانت تذهب إلى الكنيسة، فإنها تستحمّ أيضاً في كل يوم، وهو أمر لا يفعله المسيحيون أبداً. تضع تحت ثيابها الخرز الأزرق الفاتح، وترقص في السرّ عند أول شعاع من ضوء القمر وهو في أول عمره. وأنا أخاف الليل أكثر من خشيتي الدّببة المُحبّة، أو الطيور الأضخم من البقر. وأتساءل: كيف لي أن أجدك في

الظلمة؟ ثمة وسيلة الآن على الأقل. لديّ أوامر. الأمر مُدبّر. سأشاهد فمك وأمرّر أصابعي عليه نزولاً. وتغرز ذقنك في شعري وأنا أتنفس على كتفك شهيقاً وزفيراً، شهيقاً وزفيراً. أنا سعيدة لأن العالم ينفتح أمامنا، لكن جِدّته تصيبني بالرعدة. عليّ، للحصول عليك، أن أغادر المنزل الوحيد الذي أعرفه والأناس الذين أعيش معهم. تقول لينا إنني ربما كنت في السابعة أو الثامنة عندما جيء بي إلى هنا. وقد غلينا الخوخ البري لنصنع منه المربّى وأقراص الحلوى، ثماني مرّات، فلا بدّ أنني إذاً في السادسة عشرة. وأنا، قبل هذا المكان، أمضيت أنهري ألتقط البامية وأكنس حظائر التبغ، وبتُّ لياليّ على أرضية المطبخ مع أمّ لي. نحن معمّدات، ويمكننا أن نحظى بالسعادة بعد انتهاء هذه الحياة. الأب المحترم يقول لنا ذلك. ونحن، مرّة كل سبعة أيام، نتعلّم القراءة والكتابة. يُمنع علينا مغادرة المكان. لذا نختبئ، نحن الأربعة، على مقربةٍ من المستنقع: أمي، وأنا، وابنها الصغير، والأب المُحترَم. يُحظَر عليه القيام بذلك، لكنه برغم ذلك يعلّمنا، وهو يأخذ حذره من الفرجينيين الفاجرين والبروتستانت الذين يريدون الإمساك به. ولو فعلوا ذلك، فسيذهب إلى السجن أو يدفع المال، أو يقوم بالأمرين معاً. لديه كتابان ولوح. ونحن نمسك قضباناً نرسم بها في الرمل، وحصى صغيرة نعطي بها الكلمات أشكالها على الصخر المسطّح الناعم. أنا أسرع من أمي، أما صبيّها الطفل فلا نفع منه على الإطلاق. أصبح في وسعي، بسرعة، كتابة «قانون الإيمان النيقي» عن ظهر قلب، مع كل ما يتضمّنه من فواصل.

أعترف بأنني لم أكتب كما أفعل الآن. نسيت معظم الكتابة تقريباً، حتى الآن. أحب أن أتكلّم. التكلّم مع لينا، مع الحجر، بل حتى مع سورّو. والأحلى من ذلك كلّه الحديث معك. في البداية، عندما جيء بي إلى هنا، لم أكن أنطق بأي كلمة. فكل ما أسمعه مختلف عمّا تعنيه الكلمات لوالدتي ولي. لم تتفوّه لينا بأي كلمات أعرفها، ولا السيّدة. أخذ بعض الكلام يصدر ببطء من فمي. وليس من كلمة بحث بها عن الصخرة. تقول لينا إن مكان تكلّمي عن الصخر، هو أرض مريم، حيث يعمل السيّد. وهو كذلك المكان الذي ستُدفَن فيه والدتي وطفلها الصبي، أو الذي سيصبح كذلك إذا قررا الراحة. وليس النوم على أرضية المطبخ معهما لطيفاً، بقدر النوم في المزلجة المكسورة مع لينا. نضع في الطقس البارد ألواحاً حول الجزء المخصّص لنا في حظيرة البقر، ونلفّ أذرعنا معاً تحت الجلود. لا نشمّ رائحة روث البقر لأنه مجلّد، ونحن غارقات في عمق الفرو. وإذا ما غزت البراغيث مضاجعنا المعلّقة صيفاً، تصنع لينا من الأغصان مكاناً لطيفاً للنوم. وأنتَ لم تحب أبداً الأرجوحة المعلّقة، وفضّلت الأرض حتى في موسم المطر عندما عرض عليك السيّد المخزن. ولم تعد سورّو تنام أبداً على مقربة من الموقد. وكفّ الرجلان اللذان يعاونانك، ويل وسكالي، عن البقاء ليلاً، لأن سيّدهما لا يسمح بذلك. أتذكرهما، كيف يرفضان تلقّي الأوامر منك إلى أن يحملهما السيّد على ذلك؟ وهو يمكنه القيام بذلك لأنه قايضهما بأرض للإيجار. تقول لينا إن للسيّد وسيلة فطنة في الأخذ دون أن يعطي. أعرف أن ذلك صحيح لأنني أشاهده دائماً

وأبداً. أنا أراقب، ووالدتي تستمع، وصبيها الطفل على ردفها. «السنيور» لا يدفع المبلغ الكامل المستحق للسيد. ويقول السيد إنه سيأخذ، بدلاً من ذلك، المرأة والفتاة، وليس الصبي الطفل، فيُلغى الدين. ترجوه إحدى الأمهات التي لي، بأن لا. لا يزال الطفل يرضع من صدرها. قالت: خذ الفتاة، ابنتي، أنا، أنا. وافق السيّد وبدّل الرصيد الباقي. ما إن تم تعليق أوراق التبغ لتجف حتى أخذني الأب المحترم على عبّارة، ثم على مركب شراعي، ثم على قارب، وصرّني بين صناديق كتبه وطعامه. أصبح اليوم الثاني بارداً ومؤذياً، وسُعدت لامتلاكي وشاحاً رقيقاً. أستسمح الأب المحترم الذهاب إلى مكان آخر على القارب، لكنه طلب مني البقاء حيث أنا بالضبط. جاءتني امرأة وأمرتني بالوقوف. ولما فعلت، أخذت وشاحي عن كتفي، ثم حذائي الخشبي، وسارت مبتعدة. احمرّ وجه الأب وتحوّل إلى لون أحمر شاحب عندما عاد وعلم بما حصل. هرع إلى أنحاء المكان سائلاً أين؟ ومن؟ لكنه لم يعثر على أي جواب. أخذ في النهاية خرقاً مستطيلة من قماش الأشرعة المنتشرة في المكان، ولف بها قدمي. وها أنا أعرف الآن أن الكهنة، بخلاف «السنيور»، غير محبوبين هنا. بصق بحّار في البحر عندما طلب منه المحترم المساعدة. الأب المحترم هو الرجل الوحيد اللطيف الذي سبق لي أن رأيته يوماً. واعتقدت، بوصولي إلى هنا، أنه المكان الذي يحذّر منه. جليد الجحيم الذي يأتي قبل النار الأبدية التي يَصْلى فيها الخطاة ويحترقون إلى الأبد. لكن الجليد يأتي أولاً، كما يقول. وعندما أرى سكاكين منه تتدلى من

المنازل والأشجار، وأشعر بالهواء الأبيض يلفح وجهي، أتيقّن من أن النار آتية، ثم تبتسم لينا عندما تنظر إليّ وتلفّني لأتدفأ. وتشيح السيدة بنظرها. كذلك لا تسعد سورّو بمشاهدتي. تلوّح بيدها أمام وجهها، كما لو أن النحل يزعجها. وها هي أكثر غرابة من قبل، وتقول لينا إنها حامل مرّة أخرى. لم يتضح بعدُ من هو الوالد، وسورّو لا تبوح. يضحك ويل وسكالي وينفيان. تعتقد لينا أنه السيّد، وتقول إن لديها أسبابها للاعتقاد بذلك. وعندما أسألها عن السبب تقول إنه رجل. السيّدة لا تقول شيئاً، ولا أنا. لكنني أشعر بالقلق. ليس لأن عملنا ازداد، بل لأن الأمهات اللواتي يُرضعن الأطفال الشرهين يُخفنني. أعرف كيف تصبح أعينهن عندما يقمن بالاختيار. كيف يربينهم لينظرن إليّ شزراً، قائلات أموراً لا يمكنني سماعها، ومعترفات بأمور مهمة لي، لكنهن ممسكات بيد الصبي الصغير.

تحرّك الرجل عبر الموج المتكسّر، يطأ بحذرٍ الحصى والرمل ليبلغ الشاطئ. فالضباب غطّى الأطلسي، ورائحة الحياة النباتية الكريهة غمرت الخليج. أمكنه رؤية جزمته تتخضخض في الماء، لكن ليس حقيبته أو يديه. ما إن أصبح الموج المتكسّر وراءه وغرق نعله في الوحل، حتى استدار ليلوح لبحارة المركب الأحادي الشراع. لكنه، بسبب اختفاء الصاري في الضباب، لم يسعه التيقّن إذا بقوا راسين أو غامروا بالملاحة، ملازمين الشاطئ ومقاربين مواقع الأرصفة والأحواض. وعلى عكس الضباب الإنكليزي الذي عرفه مذ أمكنه المشي، أو ذلك الموجود في الشمال البعيد حيث يعيش الآن، فإن الشمس تُحدث هذا الضباب الذي يحوّل العالم إلى ذهبٍ سميكٍ وحار، اختراقه أشبه بكفاحٍ في حلم. انحرف يساراً مع تحوّل الوحل إلى مستنقع من العشب، وخطا بحذرٍ شديدٍ إلى أن صادف ألواحاً خشبية تصل الشاطئ بالقرية. عمّ الصمتُ العالمَ ما خلا صوت تنفّسه وخطاه. لم يتشتّت الضباب في جميع الاتجاهات ويتفرّق إلا بعد بلوغه أشجار السنديان الصلبة. فزاد من سرعة

تحرّكه، وقد أصبح أكثر سيطرة، لكنه افتقد الذهب الحاجب للرؤية، والذي انبثق منه.

وصل، وقد تأنّى في سيره بمزيد من الثقة، إلى القرية المتهالكة البناء، المستلقية بين مزرعتين ضخمتين على ضفاف النهر. وهناك، تم إقناع سائس الخيل بالاستغناء عن «العربون» في حال وقّع الرجل، جاكوب فارك، على سند بذلك. صناعة السرج سيئة، لكن الفرس، ريجينا، جيدة. شعر، وقد امتطاها، بأنه في حال أفضل، وركب خالي البال، ومسرعاً أكثر مما يجب أن يسرع، على طول الشاطئ، إلى أن دخل أحد ممرات ليناب القديمة. ثمة سبب هنا للحذر، فأبطأ من سير ريجينا. لا يمكنه في هذه البقعة من الأرض، معرفة الصديق من العدو. فمنذ نحو ست سنوات، شنّ جيش من السود، وسكان البلاد الأصليون، والبيض، والخلاسيون - محرَّرين، وعبيداً، وعاملين بموجب عقود - حرباً على الأعيان المحليين بقيادة أعضاء من هذه الطبقة بالذات. وعندما فقدت «حرب الشعب» آمالها عند حبل المشنقة، فرّخ ما قامت به من عمل - بما في ذلك ذبح القبائل المعارضة وطرد الكارولينيين من أرضهم - سلسلةً من القوانين الجديدة تجيز الفوضى دفاعاً عن النظام. فمن خلال إلغاء إعتاق العبيد، والتجمعات، والسفر، وحمل السلاح للسود فقط من الناس؛ ومن خلال منح ترخيص لأي أبيض بقتل أي أسود لأي سببٍ كان؛ ومن خلال تعويض المالك عن أي عطب يصيب العبد أو عن موته، فرّقوا بين البيض والآخرين إلى الأبد. وانهار أي نظامٍ اجتماعي تكوّن بين الأعيان والعمّال قبل التمرّد

وخلاله، تحت مطرقةٍ استُخدمت بمهارة لمصلحة منافع الأعيان. وهي، من وجهة نظر جاكوب فارك، تشريعات غير قانونية تشجّع على البطش في سبيل قضية مشتركة، إذا لم تكن ميزة مشتركة.

إنها، باختصار، سنة ١٦٨٢، وريجينا لا تزال في حالة تشوّش. مَن الذي يمكنه أن يجاري المعارك الحامية من أجل الرب والملك والأرض؟ على المسافر وحيداً أن يلزم الحذر حتى في سبيل المحافظة النسبية على سلامة جلده. عرف أنه قد يجري لساعات، ولا رفيق له سوى أسراب الإوز الطائرة فوق الممرات المائية البرّية، حيث قد ينبري فجأة، من وراء الأشجار الساقطة، فأر جائع يحمل مسدساً أو قد تختبئ عائلة من الهاربين في جوفٍ ما، أو قد يهدّده مجرم مسلّح. وهو هدف يسيل له اللعاب لكونه يحمل أنواعاً متعددة من النقود وسكّيناً. حثّ جاكوب الفَرَس على الإسراع في عدوها، وقد حرص على الخروج من هذه المستعمرة إلى أخرى أقل خطراً، لكنها، على الصعيد الشخصي، أكثر تنفيراً. ترجّل مرتين، وسعى في المرة الثانية إلى تحرير الرجل الخلفية الدامية لراكون [حيوان ثديي] صغير وقد علقت في شق شجرة. أخذت ريجينا تمضغ العشب عند جانب الطريق، بينما حاول أن يكون على أكبر قدر من اللطف متفادياً مخالب الحيوان المرتعب وأسنانه. وما إن نجح في ذلك حتى مضى الراكون وهو يعرج، ربما إلى الوالدة التي أجبرت على التخلّي عنه، أو بالأحرى للسقوط في مخالب أخرى.

أخذ، وهو يعدو وحده بفرسه، يعرق بشدّة، حتى أصبحت عيناه مالحتين، وتلبّد شعره على كتفيه. وبرغم أنه شهر تشرين الأول/أكتوبر، فإن ريجينا تروّت بالبلل وأخذت تنخر. فكّر في أنه ما من شيء يشبه الشتاء في هذه الأنحاء، ولربما أمكنه أيضاً البقاء في باربادوس، التي فكّر مرة في الذهاب إليها، برغم أنه يُحكى أن حرّها قاتل أكثر من هذا. لكن ذلك جرى منذ سنوات طويلة، وقد أُلغي القرار قبل أن يعمل على تحقيقه، فقد مات عمّ له من طرف العائلة التي تخلّت عنه، لم يلتقِه أبداً وترك له مئة وعشرين فداناً في إقطاع مستكين من الأرض في مناخ يفضّله أكثر. مناخ يتمتع بفصول أربعة مختلفة. لكن هذا الضباب الرقيق، الحار والحافل بالبعوض، لم ينلْ من معنوياته. فهو مستمتع برحلته برغم السفرة البحرية الطويلة في ثلاثة مراكب عبر ثلاثة أحواض مائية مختلفة. ولم يمنعه من الإحساس بهذه المتعة ركوبه المفضي الآن عبر طريق ليناب. لم يفشل أبداً في تنشيطه تنشق هواء عالم على هذا القدر من الجِدّة، يكاد يصيب بالذّعر من جراء وحشيته وإغرائه. وهو ما إن أصبح وراء ذهب الخليج الساخن، حتى رأى غابات لم تُمس منذ أيام نوح، وضفة شاطئ يكفي جمالها لتهطل الدموع كالمطر، تزخر بطعام بري لمن يشتهي. لم يفاجئه كذب الشركة في شأن الكسب السهل الذي ينتظر جميع الوافدين، ولم يحبط عزيمته. بل إن القساوة، والمغامرة، هما في الواقع اللتان اجتذبتاه. فحياته كلها مزيج من المواجهة، والمخاطرة، وتهدئة الخواطر. وها هو الآن، يتيمٌ أشعث أصبح ملاّكاً، متّخذاً لنفسه مكاناً من لامكان،

ومنتقلاً من حياة عجيفة إلى حياة لطيفة. استمرأ عدم معرفته أبداً ما الذي ينتظره في الطريق، ومن الذي سيقاربه، وبأي نية. ولكونه سريع البديهة، فإنه يتوهّج لذّةً عندما تحتاج أزمة ما، كبيرة كانت أم صغيرة، إلى تدخّل وعمل سريعين. تأرجح على السرج السيّئ الصنع، وجهه إلى الأمام وعيناه تزرعان الجوار نظراتٍ مترقّبة. يعرف طبيعة الأرض معرفة وثيقة، منذ سنوات مضت، عندما كانت «الأمة السويدية» القديمة، ولاحقاً عندما أصبح وكيلاً للشركة، وكذلك عندما تولّى الهولنديون السيطرة. خلال ذلك النزاع وما قبله، لم تكن توجد أي فائدة في معرفة من يطالب بهذه الأرض أو تلك، ولا هذا المخفر الأمامي أو ذاك. وفي ما عدا سكان البلاد الأصليين، الذين يملكون ذلك كلّه، فإنه يمكن لأي بقعة من الأرض، من سنة إلى أخرى، أن تصبح مدعاةً للمطالبة من كنيسة ما، أو تقع تحت سيطرة شركة ما، أو تصبح ملكية خاصة يمنحها الملك لابن له، أو حتى لمحظي. ولمّا كانت المطالبة بالأراضي سريعة التقلّب، في ما عدا وضع الإشارات على صكوك البيع، فإنه لم يُعر انتباهاً كبيراً للأسماء القديمة أو الجديدة للمدن أو للحصون: حصن أورانج؛ رأس هنري؛ أمستردام الجديدة؛ فيلتفيك. فهو ينتقل، بحسب جغرافيته الخاصة، من أنغلوكان إلى سيسكويهانا، عبر شيسابيك من خلال ليناب، لأن حياة السلاحف تمتد أكثر من حياة المدن. وعندما أبحر في النهر الجنوبي عبر خليج شيسابيك، نزل إلى البرّ، حيث وجد إحدى القرى، وسلك طرق السكان الأصليين على ظهر جواده لا يغفل نظره عن حقول الذُّرَة الخاصة بهم،

متنبّهاً عبر مناطق صيدهم، طالباً الإذن بتهذيب لدخول قرية صغيرة من هنا، وأخرى كبيرة من هناك. سقى حصانه عند جدول، وتحاشى المستنقعات المتوقّدة قبالة أشجار الصنوبر. تعرّف إلى سفح تلال، وأيكة سنديان، ووجر مهجور، وتنشّق الرائحة المفاجئة لنسغ الصنوبر. فذلك كله مهم، بل ضروري. عرف جاكوب أنه، في مثل هذه الأرض المخصّصة لغرض محدّد، ما إن يخرج من غابة الصنوبر هذه المحاذية للمستنقعات، حتى يصبح أخيراً، في ماريلاند، وهي الآن مملوكة من الملك، بكاملها.

عندما دخل موطن ملكيته الخاصة، تصارعت مشاعره على طريقة «لا غالب ولا مغلوب». وعلى عكس المستعمرات شمال الشاطئ وجنوبه - المتنازع عليها، وتعاد تسميتها على نحو دائم؛ وتجارتها محدودة مع أي أمة تنتصر - تسمح مقاطعة ماريلاند بالتجارة مع الأسواق الخارجية. وهي جيّدة للغرّاسين، وأفضل للتجار، وأحسن ما يكون للسماسرة. لكن المزارع كاثوليكية حتى العظم. يجول الكهنة في مدنها علانية؛ معابدهم ترهب ساحاتها؛ وإرسالياتهم المشؤومة تبرز عند مشارف قرى السكان الأصليين. ومجالهم الحصري هو القانون، والمحاكم، والتجارة والنساء المتزينات باللباس، بكعوبهن العالية، يركبن عربات يجرها عبيد في العاشرة من العمر. امتعض من المكر الرخو والبرّاق لأتباع البابا. لقد حفظ كل الصف في جناح الأطفال في ملجأ الفقراء، هذه الأسطر من كتاب المبادئ: «أمقت غانية روما المتهتّكة تلك وكل تجديفاتها: لا تشربوا من

كأسها الملعونة، ولا تطيعوا أحكامها». ولا يعني هذا أنه لا يسعه العمل معهم، وهو غالباً ما تفوّق عليهم في الصفقات، خصوصاً هنا حيث يتزاوج التبغ والعبيد، وكل منهم يطبق بيده على مرفق شريكه. وأي منهم عرضة للانهيار، إما من جراء المثابرة على العنف، وإما بسبب المرض المفاجئ، وهو ما يزعج الجميع ما عدا المُقرِض.

يجب تنحية الازدراء جانباً، مهما صعب إخفاؤه. أُجريت معاملاته السابقة مع هذه القرية من خلال الموظف الإداري للمالك، وهو يجلس على كرسي حانة. أما الآن، فقد دُعي، أو بالأحرى استُدعي، إلى منزل الزرّاع، وهي مزرعة تدعى جوبليو. أيُطلب من تاجرٍ أن يتناول الطعام مع سيّدٍ نبيل؟ وفي يوم أحد، قال في نفسه لا بد من وجود مشكلة. كان يضرب البعوض بشدة ويترقّب الأفاعي التي تجفل الفرس، حينما لمح البوابات الحديدية العريضة لجوبليو ووجه الفرس عبرها. سبق له أن سمع عن عظمة المكان، إلا أنه لم يكن مستعداً لما انبسط أمامه. فالمنزل المبني من حجارة بلون العسل، هو في الحقيقة أشبه بمكان يقيم فيه المرء محكمة. ففي البعيد، وراء البوابات الحديدية التي تحيط بالمزرعة وقد لفّ جوّها الضبابُ الخفيف، رأى صفوفاً من الأجنحة الهادئة الفارغة. نظر إلى الحقول محاولاً تقدير الضرر الذي أنزله الطقس الكثير البلل بالمحصول. لفّت رائحة أوراق التبغ جوبليو كبلسمٍ، أشبه بالمواقد والنساء الصالحات اللواتي يقدّمن الجعّة الخفيفة. انتهى الطريق عند ساحة قرميدية صغيرة تؤدّي إلى المدخل الفخم لإحدى الشرفات.

توقّف جاكوب. ظهر فتى، فنزل عن ركابه ببعض القسوة، وناول الفتى اللجام وحذّره.

«ماء، لا طعام».

«نعم، سيدي»، قال الفتى واستدار بالفرس وهو يتمتم، «سيدة لطيفة، سيدة لطيفة»، وقادها بعيداً.

صعد جاكوب فارك ثلاث درجات قرميدية، ثم عاد أدراجه ليقف بعيداً عن المنزل ويعاينه. أحاطت بالباب نافذتان كبيرتان، تحتوي كل منهما على دزينتين على الأقل من ألواح الزجاج. وأبقت خمسُ نوافذ إضافية في الطابق الثاني العريض، أشعةَ الشمس متلألئة فوق الضباب الخفيف. لم يسبق له أبداً أن رأى منزلاً كهذا. فالأشخاص الأكثر ثراءً الذين يعرفهم، بنوا منازل بالخشب، وليس بالآجر، بألواح خشبية متفسّخة وبدون حاجة إلى أعمدة كبيرة تناسب مبنى البرلمان. وفكّر في أنه فخم، لكنه سهل؛ سهل البناء في ذلك المناخ. كل شيء مصمَّم للنسيم وليس للجليد: خشب جنوبي ليِّن، حجارة عاجية اللون، بدون حاجة إلى «القلفطة». ردهة طويلة، ربّما، وقاعات استقبال، وغرف للسكنى... عمل سهل، حياة سهلة، لكن، يا إلهي، ماذا عن الحرّ.

خلع قبعته، ومسح بكمّه العرق من خط منبت الشعر على الجبهة. وعاد وهو يتحسّس ياقته المشبعة بالبلل بأصابعه، وجرّب مكشطة الجزمات. وقبل أن يدق الباب فتحه رجل قصير متناقض

الملامح: كبير في السن دون أن يهرم، محترم ومتهكّم، شعر أبيض على وجه أسود.

«عصريّة سعيدة، يا سيدي».

«السيّد دورتيغا ينتظرني». عاين جاكوب الغرفة من فوق رأس العجوز.

«نعم، سيدي. قبعتك، سيدي؟ السيّد دورتيغا ينتظرك. شكراً سيدي. من هذه الناحية، سيدي».

وقعُ أقدامٍ، شديدٌ ونشط، تبعه نداء دورتيغا.

«يا للتوقيت الجيّد! تعالَ يا جاكوب، تعالَ»، وأشار صوب إحدى قاعات الاستقبال.

«نهارك سعيد، سيدي. شكراً لك يا سيدي»، قال جاكوب، متعجّباً من معطف مضيفه، وجوربيه العاليين، وشعره المستعار المُبهرَج. وبرغم ما تُضفيه هذه البهارج في الحر، كانت بشرة دورتيغا جافّة كالرقّ، في حين كان جاكوب يواصل التعرّق. وقد أربكته حالة المنديل الذي سحبه من جيبه بالقدر ذاته الذي أربكته فيه حاجته إليه.

جلس إلى طاولة صغيرة مُحاطة بأصنام محفورة، بينما كانت النوافذ مغلقة في وجه الهواء الملتهب، وشرب بيرة «الساسافراس»، واتفق مع مضيفه في شأن الطقس، وتغاضى عن اعتذاراته لأنه حمّله معاناة اجتياز هذه المسافة كلها للمجيء.

وبقوله ذلك انتقل دورتيغا سريعاً إلى العمل. لقد حلّت الكارثة. سمع جاكوب بها، لكنه أصغى بتهذيب وبمسحة من التعاطف إلى الرواية التي يحكيها هنا الزبون - المدين. رست سفينة دورتيغا، لمدة شهر، على بعد ميل من الشاطئ في انتظار مركب، كان يُتوقع وصوله في أي يوم، لإعادة استيفاء ما خسره. فقد هلك ثلث حمولتها بسبب حمّى التيفوس. وغرّمه قاضي الملاّكين خمسة آلاف رطل من التبغ لأنه رمى الجثث قريباً جداً من الخليج. أجبر على انتشال الجثث - التي أمكن العثور عليها (قال دورتيغا إنهم استخدموا رماحاً وشباكاً، وهي عملية شراء كلّفت وحدها جنيهين وستة شيلينات) - وأمر بإحراقها أو دفنها. اضطر إلى تكويمها في عربتين، ونقلها إلى الأرض الواطئة حيث ستتكفل التماسيح وطحالب المستنقعات بإنهاء المهمة.

هل يتعظ من خسارته ويترك السفينة تبحر إلى باربادوس؟ كلا، فكّر جاكوب. ولأنه رجل أخرق، عنيد في إصراره على الخطأ مثل جميع أتباع الإيمان الكاثوليكي، فسيبقى في المرفأ شهراً آخر في انتظار سفينة موهومة من ليشبونة تخزن ما يكفي من الحمولة لاستيفاء الرؤوس التي خسرها. وتغرق السفينة وهو ينتظر تعبئة كامل حمولتها، فلا يخسر المركب وحسب، وليس الثلث الأساسي فقط، بل كل شيء، ما عدا أفراد الطاقم الذين كانوا، طبعاً، غير مقيّدين بالسلاسل، وأربعة أنغوليين غير صالحين للبيع، وقد احمرّت عيونهم غضباً. وها إنه يريد الآن مزيداً من الحساب الائتماني، ومهلة ستة أشهر إضافية لدفع ما سبق له أن استدانه.

شكّل العشاء مسألة ثقيلة الوطأة على النفس، وتحوّلت إلى شيء لا يُطاق بسبب شعور جاكوب بالضيق. فثيابه الخشنة في تناقض فاضح مع الحرير المطرّز والياقة المخرّمة. وتحوّلت أصابعه الحذقة في العادة إلى خرقاء مع أدوات المائدة، بل يوجد حتى أثر من دم الراكون على يديه. أخذت الآن الحفيظة المزروعة في التفتّح. ما هو سبب مثل هذا المظهر في مساء فاتر الحركة من أجل ضيف وحيد من منزلة أقل بكثير من منزلتهم؟ قرّر أن ذلك متعمّد: مسرحية للحطّ من قدره، ودفعه إلى موافقة ذليلة على رغبات دورتيغا. بدأت وجبة الطعام بصلاة هُمس بها بلغة لم يتمكن من فكّ رموزها، وبرسم بطيء لإشارة الصليب قبل الصلاة وبعدها. كبح جاكوب غيظه، برغم يديه المتسختين وشعره المتهدّل بسبب العرق، واختار التركيز على الطعام. لكن جوعه الكبير انكمش عندما قُدّمت إليه الأطباق الكثيرة التحضير: كل شيء، ما عدا الكبيس والفجل، مقلي أو مطبوخ بأكثر مما يجب. أصابه النبيذ، الممزوج بالماء والكثير الحلاوة، بالخيبة، وتحوّلت الصحبة إلى الأسوأ. الابنان صامتان صمتَ القبور. وزوجة دورتيغا ثرثارة كطاحونة الكلام، تطرح أسئلة لا معنى لها - كيف تتدبر عيشك في الثلج؟ - وتقدّم ملاحظات منافية للمنطق، كما لو أن حكمها على السياسة موازٍ لحكم الرجل. ربّما تعلّق الأمر بلفظهم، وبتمكّنهم الضيّق من اللغة الإنكليزية، ولكن بدا لجاكوب أنه ما من شيء رشح من المحادثة، له صلة بالعالم الحقيقي. تحدّث كلاهما عن الخطورة، وعن المسؤولية الفريدة التي وفّرها لهما هذا العالم المتوحش؛ وارتباطه الذي لا

ينفصم بعمل الرب والصعوبات التي تحمّلاها خدمة له. وقالا إن العناية بالعمال المرضى أو الجامحين كافية لرفعهما إلى مرتبة القديسين.

«هل هم غالباً مرضى، يا سيدتي؟»، سأل جاكوب.

«ليس كما يدّعون»، قالت المضيفة. «يا لهم من سَفَلَة. لا يمكنهم أن ينجوا أبداً من مثل هذا الخداع في البرتغال».

«أوَيأتون من البرتغال؟»، تساءل جاكوب، وهو حائر إن كانت المرأة التي تقدّم الطعام تفهم الإنكليزية، أم أنهم يلعنونهم فقط باللغة البرتغالية.

«في الحقيقة، أنغولا هي جزء من البرتغال»، قال دورتيغا. «إنها الأرض الأجمل والألطف».

«البرتغال؟».

«أنغولا. لكن، بالتأكيد، لا مثيل للبرتغال أبداً».

«أقمنا هناك طوال أربعة أعوام»، أضافت السيدة دورتيغا.

«البرتغال؟».

«أنغولا. لكن، أرجو أن تتذكّر أن أولادنا لم يولدوا هناك».

«في البرتغال، إذاً؟».

«لا، في ماريلاند».

«آه، إنكلترا».

وكما تبيّن، فإن دورتيغا هو الابن الثالث لمربي ماشية، ولا

يتوقّع شيئاً. مضى إلى أنغولا، منبع عبيد البرتغال، لإدارة شحنات إلى البرازيل، لكنه وجد أن الآمال تتحقق بالثراء بسرعة أشد، وسخاء أكبر في الخارج الأبعد. كان القفز من نوع من الرعي إلى آخر سريعاً ومُغْنياً إلى أبعد الحدود. فكّر جاكوب لفترة: لا يبدو أن دورتيغا يتماشى كما يجب مع مكانته الجديدة نسبياً، إلا أنه لم يشكّ في أن الغلبة ستكون له بشكل ما، كما صُمّم لهذه الدعوة إلى العشاء أن تثبته.

لديهما ستة أولاد، اثنان منهم يافعان كفاية للجلوس إلى المائدة. وهما في الثالثة عشرة والرابعة عشرة، أبكمان كالحجارة، يضعان شعراً مستعاراً أبيض كوالدهما، كما لو أنهما في حفلة راقصة، أو في قاعة محكمة. أدرك جاكوب أن لا معنى لمرارته، وأنها نتيجة أنه لم يعد لديه من بقي على قيد الحياة، ذكوراً أو إناثاً. الآن، وقد لحقت ابنته باتريشيا بأشقائها الموتى، لم يعد يوجد من يحصد الميراث المتواضع والمحترم الذي كان يأمل بجمعه. وهكذا، سلّى جاكوب نفسه، وقد كبت حسده كما تعلّم ذلك في مأوى الفقراء، مستحضراً في ذهنه العيوب في حياة الزوجين. بدَوَا مناسبين كثيراً لبعضهما البعض: مغرورَيْن، مرفّهَيْن، أكثر افتخاراً بأوانيهما المعدنية والخزف الصيني من فخرهما بأبنائهما. ويتضح تماماً لماذا وقع دورتيغا ضحية دين خطير. فهو، وقد حوّل الكسب إلى زخارف لا فائدة منها، ولم يربكه التبذير، والجوارب الحريرية، والزوجة التي تهتم بالملباس، وتذيب الشموع في وسط النهار، لن يتمكن أبداً من التغلّب على أي انتكاسة، سواء أكانت خسارة خراف أم

دمار محصول. لاحظ جاكوب، بمراقبته الزوجين، أن الرجل والمرأة لا ينظران أبداً إلى بعضهما البعض، ما عدا لمحة خاطفة عندما يحدق الآخر بعيداً. لم يمكنه القول ماذا تخفي هذه النظرات المختلسة، إلا أنه تلهّى في التكهّن بالأسوأ وهو يتحمّل الحديث السخيف وغير المفهوم، والأطباق غير الصالحة للأكل. وهما لا يبتسمان، بل تبدو على وجهيهما مظاهر الازدراء. لا يضحكان، بل يقرقران. تخيّلهما فاسقيْن مع الخدم، ومتذلّليْن للكهنة. وقد خفّف من ارتباكه الأساسي في شأن التبعات الحتمية لسفرته الطويلة - الجزمة الموحلة، اليدين المتسختين، التعرّق ورائحته - عطرُ السيدة دورتيغا الصاخب ووجهها المطلي بقوة المسحوق. وجاء الفرج الوحيد، ولو كان صغيراً، من المرأة التي أتت بالطعام، وتعبق منها رائحة كبوش القرنفل.

تبدو زوجته ريبيكا أكثر أهمية له في المرات النادرة التي يوجد فيها بصحبة زوجات أولئك الرجال الأغنياء؛ نساء يبدّلن في كل يوم فساتينهن، بينما يُلبسن خدمهن الخيش. فهو، في اللحظة التي شاهد فيها من ستصبح زوجته تُكافح عند درج السفينة مع فراشٍ، وصندوقين، وحقيبة ثقيلة، أدرك حُسن طالعه. كان على استعداد للقبول بكتلة من العظام أو بعزباء قبيحة، بل إنه توقع ذلك حقّاً، فلا بد من أن تكون الفرص الكثيرة بالزواج قد سنحت للجميلات منهن. لكن المرأة التي ردّت على ندائه وسط الحشد، كانت ممتلئة، ومليحة، وقادرة. تستحق كل يوم من أيام البحث الطويل الذي أصبح ضرورياً، لأن تولّي الملكية يتطلّب زوجة، ولأنه أراد شريكة من نوع محدّد: امرأة لا تنتمي

إلى كنيسة، وفي سن مناسب لحمل الأولاد، مطيعة وغير متذلّلة، متعلّمة وغير متكبّرة، مستقلة لكن مؤدّبة. وهو لن يقبل بأي امرأة سليطة اللسان. وريبيكا مثالية، تماماً كما وصفها التقرير الأول لمؤالف الزيجات. ليس لديها أي سلاطة على الإطلاق. لا ترفع صوتها أبداً غضباً. تلبّي حاجاته. تصنع أرقّ كتل العجين المسلوق، وتتولى، بحماسة وإبداع، الأشغال في أرض غريبة كلياً عليها، مبتهجة كعصفور الزرقان، أو أنها اعتادت أن تكون كذلك. فقد أدت وفاة ثلاثة أولاد على التوالي، تبعتها حادثة موت باتريسيان، طفلتهما ابنة الخامسة، إلى أن تفقد كل حيويّة. بدا كما لو أن نوعاً من الرماد الخفي قد حلّ عليها، ولم تؤدِّ الوقفات عند القبور الصغيرة في المروج إلى نفضه عنها. لكنها لم تشتكِ أو تهمل واجباتها، بل انصرفت بكلّيتها بدلاً من ذلك إلى عمل المزرعة. وهو عندما يسافر، كحاله الآن، في عمل، أو تجارة، أو جمع، أو إقراض، لا تساوره أي شكوك حول كيفية إدارة منزله. يمكن الركون إلى ريبيكا ومساعدَيْها كالركون إلى شروق الشمس، وهم أقوياء كالسارية. ثم إن الزمن والصحة يقفان في صفّهم. وهو على ثقة بأنها ستحمل المزيد من الأطفال، أو أقله ستنجب واحداً، صبياً، سيعيش ويترعرع.

طيّبت الحلوى، وهي كناية عن هريس التفاح والجوز، مزاجه، ورافق من بعد تناولها دورتيغا في جولة استحال رفضها على المكان، وقد تحسّن مزاجه بعض الشيء، بما يكفي ليتأمل معجباً بالمكان بصدق. انقشع الضباب، وأمكنه أن يرى بالتفصيل

جودة العمل والعناية بحظائر التبغ، والعربات، والصف تلو الآخر من البراميل - المحفوظة على نحو مرتّب ولطيف - والمسلخ، ومكان الحليب، ومكان الغسيل، والمطبخ. وكلها، ما عدا المطبخ، من الطين المطلي بالأبيض، أصغر قليلاً من جناح العبيد، لكنها على عكسه في حالة ممتازة. لم تتم مقاربة الموضوع والهدف من الاجتماع. وقد وصف دورتيغا، دون أن ينسى الانتباه إلى أقل تفصيل، الحوادث الخارجة عن سيطرته، التي جعلته عاجزاً عن دفع مستحقاته. لكنه لم يتطرّق إلى كيف سيسدّد ما يستحق عليه لجاكوب. وبعد تفحّص أوراق التبغ المبقّعة، التي غلب عليها البقّ، اتضح ما بقي لدورتيغا ليعرضه: العبيد.

رفض جاكوب. فمزرعته متواضعة، وتجارته تحتاج إليه وحده. ولا يوجد، إضافة إلى عدم توفّر مكان لوضعهم، ما يشغلهم به.

«هذا سخف»، قال دورتيغا. «بِعْهم. أتعرف الأثمان التي يجمعونها؟».

انقبض جاكوب فجأة. فليست الأجساد سلعته.

لكنه، بناءً على إصرار مضيفه، تبعه إلى الحظائر الصغيرة، حيث قطع عليهم دورتيغا راحة منتصف النهار، وأمر نحو دزينتين منهم أو أكثر بالتجمّع في صف مستقيم، بمن فيهم الصبي الذي سقى ريجينا الماء. استعرض الرجلان الصف متفحّصين. دورتيغا يحدّد المواهب ومَواطن الضعف والإمكانات، لكنه يحتفظ بالصمت حيال الندوب والجروح، الأشبه بشرايين في غير

موضعها، والتي تميّز جلودهم. بل إن واحداً منهم يحمل دمغة الوجه التي يتطلبها القانون عندما يهاجم عبد رجلاً أبيض للمرة الثانية. بدت أعين النساء منيعة ضد الصدمات، يتفرسن في ما وراء المكان والزمان، كما لو أنهن لسن في الواقع هنا. تطلّع الرجال في الأرض، ما عدا ما بين الفينة والفينة، عندما أمكن، وحينما اعتقدوا أنهم ليسوا عرضة للتقييم، استطاع جاكوب رؤية نظراتهم السريعة، الجانبية، الحذرة. لكنها، فوق ذلك كله، تحكم على الرجلين اللذين يحكمان عليهم.

شعر جاكوب فجأة بمعدته تنقبض. فرائحة التبغ المرحّبة للغاية لدى وصوله، تصيبه الآن بالغثيان، أو أنه الأرز المحلى، أو قطع الخنزير المقلية التي يتقطر منها دبس السكّر، أو الكاكاو الذي ازدهت به السيدة دورتيغا؟ مهما يكن الأمر، فإنه لا يمكنه البقاء هناك محاطاً بعدد من العبيد، جعله صمتهم يتخيّل انهياراً يُشاهَد من مسافة بعيدة. ما من صوت، بل إدراكٌ للهدير الذي لا يمكنه سماعه. اعتذر عن القبول قائلاً إن العرض غير مقبول: مشكلات كثيرة في النقل، والإدارة، والبيع بالمزاد. فما يحبه في التجارة، هو مهارته المتوحّدة غير المُربَكة. يمكنه حمل النقد، وسندات الدين، والتخلي عن المطالبة بحق. ويتسع كل ما يحتاج إليه في حقيبة واحدة. سارا عائدَيْن صوب المنزل وعبر البوابة الجانبية في السياج المزوّق، ودورتيغا يتكلّم متبجّحاً طوال الوقت. فهو سيقوم بالبيع، بالجنيه؟ بالدينار الإسباني؟ سيتدبّر عملية النقل، ويستأجر المساعد.

الغضب يستبد بجاكوب، ومعدته تنقبض، والرائحة تغزو منخريه، وتهاجمهما. فكّر في الأمر على أنه فاجعة، وإن لم يجد له حلاً، فسيفضي إلى سنوات من المحاكم في مقاطعة يحكمها قضاة الملك غير الميّالين إلى تفضيل تاجرٍ بعيدٍ على الأسياد الكاثوليك المحليين. وطرأ عليه أن الخسارة لا تُغتفر، برغم أنها ليست عاصية على الحل، خصوصاً بالنسبة إلى رجل يملك هذه الصفات وقد أثار اختيال دورتيغا، وهما يجولان في المكان، اشمئزازه. والأكثر انه رأى أن هيئة ذلك الفكّ، والجفون المتهدّلة، تخفي أمراً ليّناً، كما لو أن يديه المتعودتين على الرسن والسوط والزمام، لم تمسكا بمحراث يوماً، أو تقطعا شجرة الناس. فيه أمر يتجاوز كونه كاثوليكياً؛ أمر خسيس ومخجل. ولكن، ماذا في وسعه أن يفعل؟ شعر جاكوب، تجاه موقفه الضعيف، بخزي أشبه بلوث الدم. لا عجب في أنهم استُبعدوا من البرلمان في الديار. فهو، برغم أنه لا يعتقد بوجوب مطاردتهم كالآفة، يختار، إلا في ما خص الأعمال، ألا يختلط بهم، أو يقيم علاقات اجتماعية مع أدناهم مرتبة ولا حتى مع أرفعهم. اقترب جاكوب من المطبخ، وهو بالكاد يستمع إلى همهمات دورتيغا الماكرة، غير المباشرة، بدلاً من أن تكون مباشرة ورجولية. وشاهد امرأة تقف بالباب مع ولد وبنت. الصبيُّ على ردفها؛ والأخرى تختبئ خلف تنورتها. بدت على درجة كافية من الصحة، وقد تغذّت أفضل من الآخرين. وقال، في نزوة مفاجئة، في محاولة هدفت في الغالب إلى إسكاته وهو شبه متأكد من أن دورتيغا سيرفض: «هي. . تلك المرأة. . سآخذها».

توقّف دورتيغا فجأة، وعلت محيّاه نظرة الارتياع. «آه، لا. مستحيل. لن تسمح زوجتي بذلك. لا يمكنها العيش بدونها. إنها طباختنا الرئيسية، والأفضل».

اقترب جاكوب أكثر وتعرّف إلى رائحة العرق الممزوجة برائحة القرنفل، وشك في أن دورتيغا سيخسر ما هو أكثر من الطبخ.

«قلتَ أي واحد. في إمكاني اختيار من أريد. إذا لم تكن لكلمتك قيمة، فليس بيننا سوى القانون».

رفع دورتيغا حاجبه، حاجباً واحداً فقط، كما لو أن أمبراطورية ما تستند إلى قوته. وعرف أنه يكافح مع هذا التهديد الوقح الآتي ممن هو أدنى منزلة، لكنه علم أن من الأفضل عدم الرد على الإهانة بمثلها. فهو يريد يائساً الانتهاء من هذه العملية، ويود ذلك على طريقته.

«إذاً، نعم»، قال دورتيغا، «لكن توجد نساء أخريات هنا. المزيد منهن. عليك رؤيتهن. كما أن هذه المرأة تُرضع».

«ليس أمامنا إذاً، سوى القانون»، قال جاكوب.

ابتسم دورتيغا. من المؤكّد أن الدعوى القضائيّة ستحكم، لمصلحته، والوقت المهدور في ملاحقته سيصب في رصيده.

«أنت تذهلني».

رفض جاكوب التراجع. «قد يكون مُقرض آخر على ذوقك أكثر»، قال واستمتع برؤية اتّساع المنخر، وتلذّذ كثيراً وهو يرى

أنه أصابه في الصميم. فقد اشتهر دورتيغا بأنه لا يسدّد ديونه، واضطر إلى البحث عن وكيل بعيداً جداً عن ماريلاند بعدما استنزف أصدقاءه، ورفض المُقرضون المحليون ما يعرفون أنه، لا محالة، دَيْنٌ لن يُدفع. واضطرب الجو.

«لا يبدو عليك أنك تفهم عرضي. أنا لست أهدر دَيْني، بل أفي به. فقيمة العبدة المحنكة أكبر من أن تُقاس».

«هذا إذا كان بمقدوري استخدامها».

«استخدامها؟ بِعْها!».

«أنا تاجر بالبضائع والذهب، يا سيدي». قال جاكوب فارك، مالك الأرض. ولم يستطع الامتناع عن التعقيب، فأضاف «لكنني أدرك كم يصعب على واحد من أتباع البابا أن يلائم بعض أنواع الروادع».

«أهذا حاذق جدّاً؟»، تساءل جاكوب. قطعاً لا، على ما يبدو، فيد دورتيغا امتدت إلى ردفه. تبعت عينا جاكوب الحركة بينما التفّت أصابع يده اليسرى حول الغمد. هل سيفعل؟ هل يهاجم هذا الرجل المتخثّر والمتعجرف مُقرضه، ويقتله، ويدّعي الدفاع عن النفس والحق الخاص، فيعتق نفسه من الدَّيْن والإهانة الاجتماعية، ولو عنى ذلك الكارثة المالية التامة، بالنظر إلى أن صناديق ماله فارغة فراغ غمده؟ بحثت أصابعه الطريّة عن المقبض الغائب. رفع جاكوب عينيه إلى دورتيغا، ملاحظاً جبن الأشراف العُزّل في مواجهة واحد من العامة. إنهم يعتمدون هنا،

في البرية، على حرّاسٍ مدفوعي الأجر، غائبين عن النظر في يوم الأحد هذا. شعر بميل إلى الضحك. أين، في غير هذا المكان المختل النظام، يمكن أن يتم مثل هذا اللقاء؟ في أي مكان آخر ترتعد فيه المرتبة أمام الشجاعة؟ استدار جاكوب، تاركاً ظهره يعبّر عن ازدرائه. إنها لحظة غريبة. شعر، إلى جانب احتقاره، بموجة من الحبور؛ بالقوة؛ بالثبات. تحوَّل داخلي من المفاوض المتبصّر إلى الصبي الخام الذي جاس يوماً أزقة المدن والبلاد. لم يحاول حتى أن يكبت ضحكاته وهو يمر بالمطبخ وينظر سريعاً من جديد إلى المرأة الواقفة أمام بابه.

عند هذا الحد تماماً خَطَت الفتاة من وراء أمها، وهي تنتعل حذاءً نسائياً كبيراً جداً على قدميها. لعل ما أضحكه هو الشعور بالإباحية والتهوّر الذي استعاده حديثاً وهو يشاهد تينك الساقين الصغيرتين اللتين ترتفعان مثل قضيبي عنق من الحذاءين المهشّمين المخلّعين. ضحكة عالية تهدر في الصدر على الشماتة بالزيارة وما تسببت به من غيظ يائس. لم تكن ضحكته قد خفتت عندما تقدّمت المرأة التي تهدهد الصبي الصغير على ردفها. بالكاد يرتفع صوتها فوق مستوى الهمس، لكن لا شك في إلحاحه.

«أرجوك، سنيور. ليس أنا. خذها. خذ ابنتي».

رفع جاكوب نظره إليها، بعيداً عن قدمي الطفلة، ولا يزال فمه مفتوحاً من الضحك، وقد راعه الرعب في عينيها. هزّ

رأسه، وقد صرّ فمه كاتماً ضحكته، ومتمتماً في سرّه بأن هذا، بلا شك، أكثر الأعمال التي شهدها في حياته رداءة.

«آه، نعم. بالطبع»، قال دورتيغا، وقد نفض عنه ارتباكه السابق، محاولاً إعادة لملمة كرامته. «سأرسلها إليك. فوراً». توسّعت عيناه وهو يتكرّم بابتسامته برغم ما يبدو عليه من اضطراب شديد.

«ردّي جازم»، قال جاكوب مفكّراً في أن عليه التخلّص من شبه الرجل هذا، لكنه فكّر أيضاً في أن ريبيكا قد ترحّب أيضاً بوجود طفلة في الجوار. فهذه الطفلة هنا، السابحة في حذاء رهيب، تبدو في عمر باتريسيان ذاته، ولن يهزّ فقدانها ريبيكا حتى لو رفستها فرس على رأسها.

«يوجد أحد الكهنة هنا»، تابع دورتيغا. «في وسعه الإتيان بها إليك. سأجعلهما يصعدان إلى متن أحد المراكب الشراعية الصغيرة إلى أي مرفأ ترغب فيه على الشاطئ...».

«كلا، لقد قلت لا».

فجأة ركعت المرأة التي تعبق منها رائحة القرنفل، وأغمضت عينيها.

كتبا أوراقاً جديدة. واتفقا على أن الفتاة تساوي مقدار عشرين قطعة من ثمانية مقادير، وأخذا في الاعتبار عدد السنين أمامها مخفّضين من الرصيد ثلاثة براميل كبيرة من التبغ، أو ١٥ جنيهاً إنكليزياً. بدا أن التوتّر زال عن وجه دورتيغا. ودّع جاكوب السيدة دورتيغا والصبيين ووالدهما على عجل، وقد

تشوّق إلى الرحيل واستعادة نظرته الجيدة إلى نفسه. استدار بريجينا وهو في سبيله إلى الطريق الضيّق ولوّح للزوجين. شعر مرة أخرى، رغماً عنه، بالحسرة على المنزل، والبوابة، والسياج. وهو للمرّة الأولى لم يخادع، أو يداهن، أو يتلاعب، بل تواجه مباشرة مع أحد الأعيان الأغنياء. وأدرك، للمرة الأولى، أن الأشياء وحدها، وليس النسب أو الطبع، هي التي تفرق بينهما. أوَليس جيداً الحصول على مثل هذا السياج للإحاطة بشواهد القبور في مرجته الخاصة؟ وأن يبني، في يوم ليس ببعيد جداً، منزلاً بهذا الحجم في أملاكه الخاصة؟ منزلاً يرتفع في الخلف، مع إطلالة جميلة على التلال والوادي الذي يفصل بينها؟ ليس مزوّقاً كمنزل دورتيغا. وليس، بالتأكيد، كأي من ذلك الإفراط الوثني. لكنه سيكون جميلاً، وطاهراً، وحتى شريفاً، لأنه لن يكون مربحاً كما هي جوبليو. فوصول دورتيغا إلى أسطول من الأيدي العاملة المجانية، جعل حياته الرغيدة ممكنة. وهو، لولا حمولة سفينة من الأنغوليين المستعبَدين لما كان مديناً، ولتناول الطعام من راحة يده بدلاً من الخزف، ونام في أدغال أفريقيا بدلاً من سرير بأربعة أعمدة. ازدرى جاكوب الثروة المعتمدة على القوى العاملة المأسورة التي تتطلّب مزيداً من القوة للحفاظ عليها. فحثالة قومه البروتستانتيين، على قلّتهم، ينفرون من استخدام السياط والسلاسل والمُناظرين المسلّحين. وقد صمّم على إثبات قدرته على جمع الثروة والمركز، اللذين يدّعيهما دورتيغا، من دون أن يبيع ضميره في سبيل قرش واحد.

لكز ريجينا لتخبّ بسرعة أكبر. هبطت الشمس، وأصبح الهواء أكثر برودة. استعجل الوصول قبل الليل إلى شاطئه، فرجينيا، وإلى نزل بورسي، والنوم في سرير، إن لم تكن كل الأسرّة مزدحمة بثلاثة أو أربعة أشخاص ينامون جنباً إلى جنب. وإلا فسينضم إلى أرباب العمل الآخرين ويتكبّب على مسطّح من الأرض. لكن عليه أن يرتشف أولاً جرعة أو جرعتين من الجعّة، فطعمها المرّ الواضح حاسم في إزالة عفن التبغ الذي يكاد يأكل فمه، ويعقد لسانه. أعاد جاكوب ريجينا إلى السائس، ودفع له، وتمشّى إلى الرصيف فنَزْل بورسي. رأى في طريقه رجلاً يضرب حصاناً على ركبتيه. وقبل أن يفتح فمه ويصيح، سحب بحّارة صديدو الصخب الرجل بعيداً وتركوه يغوص إلى ركبتيه في الوحل. قليلة هي الأمور التي تغضب جاكوب أكثر من التعامل الوحشي مع الحيوانات المدجّنة. لم يعرف ما الذي يفرض البحّارة عليه، لكن غضبه العنيف لم يكن بسبب الألم الذي أنزله ذلك بالحصان فحسب، بل أيضاً بسبب الاستسلام الصامت، عديم الاحتجاج في عينيه المفتوحتين الجامدتين.

بورسي مقفل يوم الأحد، كما يفترض به أن يعرف. لذلك، مضى إلى ذلك الذي يفتح دوماً. وهو خشن، وغير شرعي، ويُرضي الفتية الأشداء، إلا أنه يقدّم برغم ذلك الطعام الجيد الوفير، ولا يقدّم أبداً اللحم القاسي. وعند رشفته الثانية دخل عازفا كمان ومزمار للمرح وجمع المال. وقد رفع من معنويات جاكوب أن عازف المزمار عزف بمهارة أقل منه، فشارك في الغناء. وعندما دخلت امرأتان المكان هتف الرجال باسميهما

ببهجة سكرى. تحرّكت القوادتان بعض الشيء وهما تهزان أردافهما قبل اختيار حضن للجلوس عليه. تمتّع جاكوب لدى مقاربته. فهو قد اكتفى، منذ سنوات، من بيوت البغاء والدعارة التي تديرها زوجات البحارة وهم في البحر. فالتهوّر الصبياني الذي غمره في جوبليو لم يمتد إلى الخلاعة العذبة التي سعى إليها في شبابه.

جلس إلى طاولة تبعثرت عليها بقايا وجبات سابقة، واستمع إلى الكلام من حوله، وهو في غالبيته يدور حول السكّر، وكان يعني به الحديث عن الروم: سعره والطلب عليه الذي تفوّق على الطلب على التبغ الذي أخذت تخمته في تدمير سوقه. كان الرجل الذي بدا أنه يعرف أكثر ما يكون عن الروم الجمايكي، والآليات البسيطة لإنتاجه، وأسعاره الفاحشة، وتأثيراته المفيدة، يفيض في الكلام بثقة كأنه العمدة.

قوي الجسم، ضخم البنية، جدريّ الوجه، له هالة رجل زار أماكن غريبة، وعينا شخص غير متعوّد على النظر إلى الأمور القريبة من وجهه. اسمه داونز: بيتر داونز. استدعي فتى زنجي، وها هو يجلب الآن ست أكواب كبيرة، مقابض كل ثلاث منها في كل يد، ويضعها على الطاولة. امتدت إليها أيادي خمسة رجال ابتلعوا محتواها بسرعة. وهو ما فعله داونز، ليس قبل أن يبصق أول جرعة على الأرض، مخبراً صحبه بأن حركته هذه هي في الوقت ذاته هِبَة وحماية من السم.

«كيف ذلك؟»، سأل أحدهم. «قد يكمن السم في القعر».

«أبداً»، قال داونز. «السم يطفو دوماً كالغريق».

انضم جاكوب، في غمرة الضحك، إلى طاولة الرجال، واستمع إلى حكايات داونز الأخاذة التي انتهت بوصف مرح صخّاب لأثداء النساء في باربادوس.

«فكّرت مرّة في الاستقرار هناك»، قال جاكوب. «كيف يبدو الأمر، في موازاة الأثداء؟».

«كالمومس، ريانة ومميتة».

«يعني؟».

مسح داونز شفتيه بكمّه. «يعني أن كل شيء وفير ويانع ما عدا الحياة، وهي عزيزة الوجود وقصيرة. ستة أشهر، ثمانية، عشرة...»، وما لبث أن لوّح بأصابعه علامة الوداع.

«كيف يتدبّرون أمرهم إذاً؟ لا بد أن الأمر في حالة اضطراب دائم». أخذ جاكوب يتخيّل الفارق بين العمل الثابت المضبوط في جوبليو، وفوضى مزارع السكّر.

«أبداً، لا»، ابتسم داونز. «يشحنون المزيد بحراً، مثل الحطب، الذي يُعوِّض ما احترق منه ليصير رماداً. ولا تنسَ أن ثمة ولادات. فالمكان أشبه بخليط من الخلاسيين، والكريوليين، والزامبو، والمُوَلّدين، واللوبو، والمُلَوّحين، والذئاب الأميركية». لمس أصابعه بإبهامه، وهو يعدد الأجناس التي يتم إنتاجها في باربادوس.

«يبقى أن المخاطرة مرتفعة»، ردّ عليه جاكوب. «سمعت عن قرى كثيرة أطاح بها المرض. فماذا يحصل عندما يتناقص عدد العمال، ولا يبقى سوى القليل القليل لنقله؟».

«ولماذا يتناقص؟»، بسط داونز يديه كأنه يحمل الهيكل الخارجي لسفينة. «يهتمّ الأفارقة ببيع العبيد للهولنديين بقدر اهتمام الزرّاع الإنكليز بشرائهم. فالحكم للروم بغض النظر عمن يقوم بالتجارة. القوانين؟ أي قوانين؟ انظر»، وأضاف: «لقد جرّبَت ماساتشوستس قوانين ضد بيع الروم، وفشلت في وقف مَرَّة واحدة. أصبح بيع دبس السكّر للمستعمرات الشمالية أكثر نشاطاً من ذي قبل. ويتضمن أرباحاً ثابتة أكثر من الفرو، والتبغ، والأخشاب، وأي شيء آخر، ما عدا الذهب بحسب تقديري. ما دامت تُعاد تعبئة الوقود، فإن الخوابي تغلي على نار خفيفة، والمال يتكدّس. الروم الجمايكي، السكّر، لن يتوفّر منهما أبداً ما يكفي. تجارة تدوم مدى الحياة الآتية».

قال جاكوب: «إنه عمل منحطّ، وشاق».

«فكّر في الأمر على هذا النحو. يحتاج الفرو إلى اصطياد الحيوان، وقتله، وسلخه، ونقله، وربما مقاتلة بعض السكان المحليين حول الحقوق فيه. والتبغ تلزمه رعاية، وقطاف، وتجفيف، وتكديس، وحمل، ويحتاج أكثر من ذلك إلى الوقت وحراثة دائمة لأرضه. وتحديث لها. أما السكّر والروم؟ فالقصب ينمو. لا يمكنك وقفه، وأرضه لا تتلاشى أبداً. وأنت تقطعه وحسب، تطبخه، وتشحنه». وصفق داونز كفّيَ يديه معاً.

«أهكذا، بمثل هذه البساطة؟».

«بدرجة أكبر أو أصغر. لكن المغزى هو هذا: لا خسارة في الاستثمار؛ لا خسارة واحدة. أبداً. ولا إمحال في المحصول. ولا قندس أو ثعلب منهكاً. ما من حرب تعيق. محصولٌ وافرٌ وأبدي. العمال العبيد، على السواء. الشارون متشوقون. المنتوج بديع. ويمكن لأي رجل أن يجني في فترة شهر، أي الزمن الذي تستغرقه الرحلة من المصنع الآلي إلى بوسطن، خمسين جنيهاً إلى خمسة أضعاف. فكّر في ذلك. خمسة أضعاف الاستثمار في الشهر الواحد، وعلى مدى كل شهر. هذا مؤكد».

لم يستطع جاكوب الامتناع عن الضحك. أدرك الطريقة: بيّاع متجوّل تحوّل إلى وسيط يزيل كل تردّد، وينهي كل جدال بوعود بالكسب السريع. شكّ جاكوب، من خلال ثياب داونز ومن خلال إحجامه الظاهر حتى الآن عن التعفّف عن المشروب، في أنه لم يجنِ ما وصفه من كسبٍ سهل.

وبرغم ذلك، قرر جاكوب النظر في الأمر.

أعادت إليه وجبة طعام من المحار، ولحم العجل، والحمام، والجزر الأبيض، والمهلّبية بالدهن، حُليماته الذائقة، قام بعدها بحجز مكان للنوم مع شخص واحد آخر فقط، ثم تمشّى في الخارج وهو يفكّر في النهار المخيب، وفي ذلّة قبوله بالفتاة كجزء من عملية الدفع. علم بأنه لن يحصل أبداً على أي فلس آخر من دورتيغا. وفي أحد الأيام - ربما قريباً - سيخسر

آل ستيورات العرش، وسيتولّى بروتستانتي الحكم. ثم فكّر في أنه يمكن كسب قضية تُرفع ضد دورتيغا، ولن يُجبر على القبول بالطفلة كجزء مئوي مما يجب له. علم بأنه لقي عذراً للصفقة بتفكيره في أن ريبيكا ستتشوّق إلى الحصول عليها، لكن الأصح من ذلك أمر آخر. فهو يعلم من طفولته، بأنه لا يوجد مكان صالح في العالم للأولاد المشرّدين والأطفال سوى سخاء الغرباء. حتى لو تمت مقايضتهم، أو وهبهم، أو تعليمهم صنعة، أو بيعهم، أو استبدالهم، أو إغواؤهم، أو خداعهم من أجل الطعام، أو استخدامهم في مقابل المأوى، أو سرقتهم، فإنهم أقل عرضة للهلاك تحت إشراف البالغين. وحتى لو لم تتجاوز أهميتهم، بالنسبة إلى قريب أو سيد، أهمية بقرة حلوب، فمن المرجّح أنهم، في غياب شخص بالغ، سيتجمّدون حتى الموت على الأدراج الحجرية، أو يطفون ووجوههم إلى الأسفل في قنوات المياه، أو تبصقهم الضفاف والمياه الضحلة. رفض أن تتغلّب عليه عواطفه في شأن وضعه الخاص كيتيم، والسنوات التي قضاها مع أولاد من كل الألوان، يسرقون الطعام ويشحذون الإكراميات لقاء قضاء بعض الحاجات. وقد قيل له إن والدته امرأة ذات أهمية قضت وهي تلد. أما والده، الذي قدم من أمستردام، فقد تركه مع اسم تسهل توريته، بسبب الارتياب العميق. عمّ كل مكان العار الذي ابتلى به الإنكليز على أيدي الهولنديين، وخصوصاً خلال فترة عمله القصيرة في مأوى للفقراء قبل أن ينتقل به الحظ إلى العمل ساعياً لدى مؤسسة للمحاماة. تطلّب العمل معرفة القراءة والكتابة، وأدى إلى إلحاقه بالشركة.

وجاءت وراثته الأرض لتخفّف من حسرته كونه ولداً يتيماً تم نكرانه. لكنه استمر في الشعور بنبضة مُشوّشة من الشفقة على اليتامى والمشرّدين، متذكّراً جيداً كيف كانت تغص بهم وبه، أسواقٌ، وأزقةٌ، وموانئ في كل منطقة سافر إليها. وجد في السابق صعوبة في الرفض عندما كان يُطلب إليه إنقاذ طفل مفصول عن مراسيه، غير مرغوب فيه. ومنذ عقد من الزمن، طلب منه نشّار أن يأخذ منه فتاة واجمة مجعّدة الشعر وجدها شبه ميتة على ضفة أحد الأنهار، ووافق جاكوب على القيام بذلك شرط أن يسامحه النشار بكلفة الخشب الذي يشتريه. في ذلك الوقت، وعلى عكس اليوم، احتاجت المزرعة فعلاً إلى مزيد من الخدم. كانت ريبيكا حاملاً عندها، لكن أياً من الأبناء الآخرين لم يعش. وشكّلت مزرعته ستين فداناً مزروعةً، من مئة وعشرين من الأرض الحرجية تقع على بعد نحو سبعة أميال من الدسكرة التي أسسها الانفصاليون. بقي نظام ملكية الأراضي في سبات لسنين عندما غادر العدد الكبير من الهولنديين (ما عدا أصحاب السلطة والمال)، أو طُردوا من المنطقة. كانت الأرض معزولة إلا للانفصاليين. وسرعان ما عرف جاكوب أنهم اندفعوا بعيداً عن إخوانهم بسبب مسألة إن كان المختارون وحدهم يخلصون، أم أن للخلاص طبيعة شاملة. فضّل جيرانه الأولى، وشكّلوا من أنفسهم جزيرة بعيداً عن مواقع الفرو والحروب. ولما وجد جاكوب، المُتاجر الصغير المستوى لشركة تتعاطى جانبياً بالفرو والخشب. استحسن فكرة أن يصبح مزارعاً ملاّكاً مستقلاً. لم يبدل رأيه حيال ذلك، وقام بما هو ضروري: أمّن

لنفسه زوجة، ومن يساعدها، وزرع، وبنى، وأنجب.... أضاف حياة التجارة وحسب. وإلا فإنه كان ليفضّل الاستقرار في حياة المزرعة والتواصل مع أناس أدهشته ديانتهم، لو أن مسافة الأميال السبعة تجعل تجديفهم خارج المجال. لكن أرضه تخص رحّالة يعرف تمام المعرفة أنه ليس من الحكمة الكبيرة وجود عمّال ذكور في جميع أنحاء المكان خلال غيابه الطويلة. ويستند تفضيله الثابت للنساء العاملات على الذكور المراوغين، إلى تجربته الخاصة كشاب. فالسيّد الغائب في صورة مستمرّة، يشكّل دعوة وإغراء، بالفرار، أو بالاغتصاب، أو بالسلب. ولا يشكّل الرجلان اللذان استخدمهما مساعدين ظرفيين أي تهديد على الإطلاق. ففي البيئة المناسبة، يمكن الركون إلى الصنّاع. وهو يعتقد ذلك الآن مع الطفلة التي تنتعل حذاء لا يناسبها، وقد رمت بها الوالدة، تماماً كما اعتقد ذلك قبل عقد من الزمن مع الفتاة السخيفة ذات الشعر المجعّد، تلك التي يدعونها سورو. ويمكن النظر إلى امتلاك الاثنين، على أنه عملية إنقاذ. وحدها لينا تم شراؤها جهارة وعن قصد، لكنها امرأة وليست طفلة.

سار في دفء هواء الليل إلى أبعد ما هو ممكن، إلى أن أضحت أنوار الحانة حجارة ثمينة تحارب الظلمة، وضاعت أصوات رجال حفلة الشراب في حفيف الموج الناعم. نسيت السماء كلّياً صباحها الناري، وتطرّزت بالنجوم الرائعة على قماشة ناعمة ومظلمة كجلد ريجينا. تفرّس في البريق العرضي لضوء النجوم على الماء، ثم انحنى ووضع يديه فيه. تحرّك الرمل تحت راحتيه، وتلاشت الأمواج الصغيرة فوق معصميه،

مبللة كفّتي كمّيه. غسلت بعد فترة نفايات النهار، بما فيها الآثار الخفيفة لدماء الراكون. لم يعترض شيء طريقه وهو عائد إلى النزل. ينتظره هناك الحرّ، طبعاً، لكن لا ضباب، ذهبياً أو رمادياً، يعيقه ويغشي عينيه. ثم إن خطّة ما بدأت تأخذ شكلها.

فهو، وقد عرف تمام المعرفة نقائصه كمزارع، ضجره من انزوائه هنا ومن الروتين الملازم لحياته، وجد أن التجارة تروقه أكثر بل إنه يتلمّس الآن فكرة مسعى أكثر إرضاء. والخطة حلوةٌ حلاوةَ السكّر الذي ترتكز عليه. وثمة فارق كبير بين خصوصية كتل العبيد في جوبليو، وبين قوة عاملة بعيدة في باربادوس. صحيح؟ صحيح، فكّر، متطلّعاً إلى السماء المزدانة بالنجوم، صافية وبعيدة. والفضة التي تلمع هناك، ليست كلّها بعيدة المنال. وتلك القطعة الكبيرة من القشدة التي تفيض عبر النجوم، والجاهزة للتذوّق.

لا يزال الحرّ ضاغطاً، ورفيق سريره كثير الحركة، لكنه نام جيّداً، ربما لأن أحلامه تعلّقت بمنزل كبير بغرف كثيرة، يرتفع على تلّة فوق الضباب.

مرّ الصيف، منذ رحيلك دون وداع، ثم الخريف، ومع زوال الشتاء عاد السّقم. ليس عند سورو كالسابق، بل عند السيّد الآن. لمّا عاد هذه المرّة أصبح مختلفاً، وبطيئاً، ويصعب إرضاؤه. يجافي السيّدة. يتعرّق ويريد شراب التفاح كل الوقت، ولم يعتقد أحد أن البثور المائية ستصبح مرض سورو القديم. يتقيّأ ليلاً ويلعن نهاراً، ثم لا يلبث أن يصبح أضعف من القيام بأي من الاثنين. يذكّرنا بأنه اختار خادمات، بمن فيهن أنا، نجوْنَ من الحصبة، فكيف يحصل هذا معه؟ لم يستطع أن يكفّ عن حسدنا على صحتنا، وعن الشعور بالخيبة من منزله الجديد الذي يمكنني أن أقول لك إنه لم يكتمل حتى الآن، على الرغم من أن النظر إلى مصنوعاتك الحديدية رائع. لا تزال أفاعي الكوبرا تقبّل تاج البوابة. المنزل عظيم، ولا ينتظر إلا الزجاج، ويريد السيّد أن يُنقل إلى هناك برغم غياب الأثاث. يطلب من السيّدة أن تستعجل وتستعجل ولا تهتم أبداً بمطر الربيع الذي يهطل لأيام، فالمرض يبدّل ذهنه كما يبدّل وجهه. غادر ويل وسكالي، وعندما قمنا نحن النسوة، ممسكات بكل طرف من

أطراف الشرشف، بنقله إلى المنزل، كان ينام فاغراً فاه على مداه. لم تعرف، لا السيدة ولا نحن، هل هو حي ولو لدقيقة واحدة فقط، ليشم رائحة خشب الكرز الذي يغطي الأرضية التي ينام عليها. نحن وحدنا. ما من أحد لتكفين السيّد، أو التفجّع عليه سوى نحن. على ويل وسكالي التسلّل خفية لحفر القبر، فقد تم تحذيرهما بالبقاء بعيداً. ولا أعتقد أنهما يرغبان في ذلك. أعتقد أن سيّدهما يجبرهما على ذلك بسبب المرض. لم يأتِ الشمّاس على الرغم من أنه صديق يحبّ سورو، وكذلك لم يأتِ أحد من الرعيّة. ومع ذلك لم نتلفّظ بالكلمة عالياً إلى أن دفنّاه إلى جانب أولاده، ولاحظت السيّدة أثرين في فمها. تلك كانت المرّة الأولى التي همسنا بها: داء الزهري. وبعدما تلفّظنا بها، انضم، في الصباح التالي إلى الاثنين في فمها، ثلاثة وعشرون على وجهها. خمسة وعشرون بالتمام والكمال. بات همّها إنقاذ حياتها. أما همّي أنا فكان الحصول على حياة.

ربما لا تعرف أنت شيئاً على الإطلاق حول كيف يبدو ظهرك في أي حالة من حالات السماء: في ضوء الشمس، أو لدى طلوع القمر. اتكأت هناك. يدي، عيناي، فمي. فالمرّة الأولى التي رأيتك فيها كنت تنفخ النار بالكير. والماء المنزلق يلمع على عمودك الفقري، وقد صدمت نفسي لرغبتي في أن ألعقك في ذلك المكان. هربتُ إلى حظيرة البقر لوقف حدوث هذا الأمر في داخلي. لكن، لا شيء يوقفه. وحدك أنت موجود. ما من شيء خارجك. وعيناي، ولبس معدتي، هما الجزء الجائع

منّي. لن أملك أبداً ما يكفي من الوقت للنظر إلى طريقة حركتك. ترتفع ذراعك لضرب الحديد. تنزل على ركبة واحدة. تنحني. تتوقف لسكب الماء على الحديد أولاً، ثم في داخل حلقك. وقبل أن تعرف أصبحتُ في عالم قتلتني فيه. فغر فمي، وارتخت ساقاي، وتمدد قلبي حتى التمزّق.

حلّ الليل، وسرقتُ شمعة. حملت جذوة لأشعلها؛ لأرى المزيد منك. وما إن اشتعلت حتى وقيتُ اللهب بيدي. راقبتك وأنت نائم. راقبتك طويلاً جداً. أحرق اللهب راحة يدي. أعتقد أنك لو استيقظت وشاهدتني أنظر إليك، لمتُّ. هربت غير مدركة حينها أنك شاهدتني أحدق إليك. وها أنا أشعر للمرة الأولى بالحياة.

انتظرت لينا معي في القرية وهي تختلج مثل سمكة سليمان علقت للتو في الصنارة. لم تأتِ عربة الأخوين ناي. انتظرنا لساعات، ثم جلسنا عند جانب الطريق. ساق فتى وكلبُه الماعز من أمامنا. رفع قبعته. هي المرة الأولى التي يفعل رجل ذلك من أجلي. أحببت الأمر. فكّرت في أنه بشارة جميلة وفأل خير، لكن لينا تحذّرني من أمور كثيرة قائلة إنني لست في مكاني وليس عليّ ان أتلكّأ، ويجب أن أعود فوراً. وأنا لا أعرف ركوب الحصان، لذا علي أن أسعى إلى العودة على عربة اليوم التالي التي يجرها حصان، تلك التي تجرّ الحليب الطازج والبيض إلى السوق. يمرّ بنا بعض الناس، ينظرون، لكنهم لا يتكلمون. لا يخافوننا لأننا إناث. يعرفون من هي لينا، وينظرون إلينا على الرغم من ذلك كما لو أننا غريبتان عنهم. انتظرنا

طويلاً إلى درجة أنني لم أوفر خبزي وسمكة المورة. أكلت المورة كلّها. أمسكت لينا جبهتها بيدها ومرفقها على ركبتها. تمنحني رؤيتها شعوراً سيئاً، لذلك أركز أفكاري على قبعة الراعي.

الهواء بارد يعبق برائحة الثلج. وها إن العربة تصل أخيراً. تسلّقت إليها. ساعدني السائق، وأبقى يده بقوة طويلاً على أجزائي الخلفية. شعرت بالخجل. نحن سبعة، عدا عن الأخوين ناي، ولم تكن الأحصنة وحدها من جعلتها ندفُ الثلج الربيعي تتوتّر. ارتجف عجزها، وهزّت عرفها. وقد توتّرنا نحن أيضاً لكننا جلسنا هادئين في حين كانت الندف تتساقط وتلتصق بشالاتنا وقبعاتنا، وترش أهداب أعيننا كالسكّر، وتغطي لحى الرجال الصوفية بما يشبه الطحين. تواجه امرأتان الريح التي تضرب شعريهما الأشبه بشرابة الذرة، وشق أعينهما اللمّاعة. تغطي الأخرى فمها بوشاحها وتستند إلى رجل. جلس صبي ذو ضفيرة شعر صفراء على أرض العربة، ويداه مقيدتان إلى رسغي قدميه. هو وأنا الوحيدان بدون بطانية تغطي أرجلنا.

جميل هو الثلج المتساقط فجأة على أوراق الشجر الطرية. ربما يبقى ما يكفي من الوقت على الأرض ليسهل تقفي آثار الحيوانات. يفرح الرجال دائماً بالثلج حيث القتل أفضل. يقول السيّد إنه ما من أحد يمكنه أن يجوع بوجود الثلج. ولا حتى في الربيع، لأنه، حتى قبل ظهور الصعرور وقبل أن تصبح الخضار جاهزة للأكل، يمتلئ النهر ببيض السمك والهواء بالطيور. لكن هذا الثلج لن يدوم مع أنه غزير ورطب وكثيف. سحبت رجليّ

إلى تحت تنورتي، ليس بحثاً عن دفء، بل لحماية الرسالة. وشددت على حضني ببقجة الخبز.

جعلتني السيدّة أحفظ عن ظهر قلب السبيل للوصول إليك. عليّ أن أصعد إلى عربة الأخوين ناي في الصباح وهي مسافرة شمالاً في طريق البريد. وستصل العربة بُعَيْدَ الظهر، بعد توقف واحد عند إحدى الحانات، إلى مكان تدعوه هارتكيل حيث أنزل. وعليّ أن أسير يساراً في اتجاه الغرب، في طريق أبيناكي التي سأتعرّف إليها من الشجيرة المحنية إلى داخل الأرض مع فرخ ينمو في اتجاه السماء. لكن عربة الأخوين ناي وصلت متأخرة جداً. وفي الوقت الذي تسلّقت إلى متنها واتخذت مكاناً لي في الخلف وراء الآخرين، كان العصر قد حل. لم يسألني الآخرون عن وجهتي، لكنهم متّعوا أنفسهم بعد فترة في الهمس عن المكان الذي عاشوا فيه سابقاً. قالت النساء إنهن عشن عند البحر ينظّفن السفن، في حين كان الرجال يسدّون شقوقها بالقار ويُصلحون أرصفة الميناء. هنّ متأكدات من أن سنوات دَينهن قد انتهت، لكن سيدهن يقول لا. وهو يرسلهن بعيداً، إلى الشمال، إلى مكان آخر، إلى دبّاغة، لمزيد من السنوات. لا أفهم سبب حزنهن. فعلى كل واحد أن يعمل. سألت هل خلّفتن شخصاً عزيزاً وراءكن؟ استدارت الرؤوس كلها صوبي وانقطعت الأنفاس. «سخف»، قال أحد الرجال. وقالت امرأة قبالتي: «إنها شابة». وقال الرجل: «سيّان». رفعت امرأة أخرى صوتها لتقول: «اتركوها وشأنها». أصوات عالية جداً. «اهدؤوا أنتم الذين في الخلف»، صاح السائق. انحنى ذلك الذي قال عنّي

سخيفة ليحكّ كاحله، وحكّ لفترة طويلة، بينما كان الآخرون يقحّون ويحتّون أحذيتهم كما لو انهم يتحدّون أوامر السائق. همست النساء اللواتي إلى جانبي، بأنه لا يوجد توابيت في المدابغ، بل ميتة سريعة في الحامض.

احتاجت الحانة إلى نور مصباح لدى وصولنا إليها. لم أرها في البدء، لكن أحدنا أشار إليها، ثم فعلنا كلّنا ذلك. ضوء يومض عبر الأشجار. دخل الأخوان ناي، وانتظرنا. خرجا ليرويا الجياد ويسقيانا، وعادا إلى الداخل. سُمعت بعد ذلك جلبة من جديد. نظرت إلى الأسفل ورأيت الحبل الذي يسقط من عند كعبيهما، يلتف حول قاعدة العربة. توقّف الثلج عن التهاطل، وغابت الشمس. هدوء غريب رافق جلبتهم، ستّة قفزوا بهدوء، الرجال يلتقطون النساء بأذرعهم. قفز الصبي وحده. أومأت النساء الثلاث إليّ. توقّف قلبي وقفزت أنا أيضاً. تحركوا عائدين من حيث أتينا، يخطون بأفضل ما يمكنهم تصوّره في الاحتماء بالشجر عند جانب الطريق، في أمكنة لا يتراكم فيها الثلج. لم أتبعهم، ولا يمكنني أيضاً البقاء في العربة. أحسست كأن حجراً بارداً حطّ في صدري. أنا لا أحتاج إلى لينا لتحذّرني من أنه ليس عليّ البقاء وحيدة مع رجلين غريبين يطلبان اللذة الجنسية بعد معاقرتهما الخمرة، وغضبهما لاكتشافهما أن حمولتهما قد ضاعت. عليّ أن أختار بسرعة. اخترتك أنت. مضيت غرباً بين الأشجار. كل ما أريده موجود غرباً: أنت. حديثك. الدواء الذي تعلم بأنه سيشفي السيدة. ستستمع إلى ما عليّ أن أقوله وتعود معي. عليّ الذهاب غرباً وحسب: يوماً واحداً؟ ليلتين؟

أسير عبر أشجار الكستناء التي تصطف على الطريق. بعضها أخذت أوراقه تينع، ويمسك بأنفاسه إلى أن يذوب الثلج. تركت الخرقاء منها براعمها تسقط على الأرض أشبه بالبازيلاء الجافة، وأنا أتحرك شمالاً إلى حيث الشجيرة المحنية إلى داخل الأرض مع فرخ يشير إلى السماء؛ ثم غرباً، إلى ناحيتك. وأنا أسرع للتقدم قبل غياب أي ضوء. تنحدر الأرض بحدّة، ولا سبيل أمامي سوى المضي نزولاً أيضاً. حاولت كثيراً أن أهتدي إليك، لكنني أضعت الطريق. لا تزال أوراق الشجر وليدة حديثاً، وأشفّ من أن توفر الحماية، والأرض رخوة في كل مكان، فتنزلق قدماي وتمتلئان ماءً. السماء بلون الكِشمِش. تساءلت إن كان يمكنني المضي أكثر. هل عليّ ذلك. جمد أرنبان في أرضهما قبل أن يقفزا بعيداً. لا أعرف كيف أقرأ ذلك. سمعت خرير ماء جارٍ، وتحرّكت في الظلمة في اتجاه الصوت. ضوء القمر في أوله. مددت إحدى ذراعيّ أمامي وسرت ببطء حتى لا أتعثّر وأسقط. لكن الصوت هو حفيف شجر الصنوبر يقطر ماءً ولا توجد لا ساقية صغيرة ولا جدول. كوّرت يدي للحصول على بعض الثلج الساقط أبتلعه. لم أسمع صوت أي مخالب، ولم أر أي طلل. إنها رائحة الفرو الرطب التي استوقفتني. أنا أشمه، وهو يشمّني، لأنه لم يبقَ شيء ذو رائحة في بقجة طعامي، إلا الخبز. لم يمكنني القول، هل هو أكبر منّي أم أصغر، أو هل هو وحده. قررت الجمود في مكاني. لم أسمعه أبداً يذهب، لكن الرائحة تلاشت أخيراً. أعتقد أن من الأفضل تسلّق شجرة. الصنوبرات القديمة كبيرة جداً. تشكّل أي واحدة

منها حماية جيدة على الرغم من أنها تمزّقني وتقاومني. تمايلت أغصانها من تحتي، لكنها لم تتكسر. اختبأت من كل شيء يدبّ ويتهدّل. أعرف أن النوم لن يراودني لأنني خائفة جداً. الأغصان تصرّ وتلتوي. خطتي لهذه الليلة ليست جيدة. أحتاج إلى لينا لتعلّمني كيف أحمي نفسي في البرية.

لم يُثر المزاج الاحتفالي اهتمام لينا، ولم يكن للرضا المضطرب لكل من هو مشارك فيه، وقع لديها، وقد رفضت دخوله، أو الدنو منه. فذلك المنزل الثالث، الذي يُفترض أنه الأخير، وأصرَّ السيد على بنائه، يعرف نور الشمس، وتطلّب موت خمسين شجرة. وهو، وقد قضى فيه الآن نحبه، سيظل يسكن غرفه إلى الأبد. المنزل الأول الذي شيده السيّد — أرض ترابية، وخشب أخضر — كان أكثر تداعياً وضعفاً من ذلك المغطى باللحاء الذي وُلدت هي فيه. الثاني كان متيناً. يعرف هو ذلك، وقد هدم الأول ليضع أرضيات خشبية في البناء الثاني المؤلف من أربع غرف، وليزوده بمدفأة لائقة، ونوافذ ذات درف جيدة محكمة الإقفال. لم توجد حاجة إلى ثالث. لكنه تعمَّد، في اللحظة ذاتها التي أيقن أنه ليس فيها من أولاد لشغل المنزل أو وراثته، بناء آخر، أكبر حجماً، بطبقتين، مسيّج وله بوابات مثل تلك التي رآها في سفراته. تنهّدت السيدة وأسرّت إلى لينا أن أقل ما سينتج عنه، هو أنه سيُبقيه لفترة أطول في الأرض.

«التجارة والسفر يملآن جيوبه، ولكن، كان عليه، عندما

تزوجنا، أن يقنع بكونه مزارعاً. والآن...»، وتلاشى صوتها وهي تنتف ريش الأوزة.

لم تستطع السيدة حجب الابتسامة عن وجهها خلال بنائه. سعدت مثل كل الآخرين، ويلارد، سكالي، العمّال المستأجَرين، الرجال الذين يُسلّمون البضاعة، وأخذت تطبخ كما لو أنه زمن الجنى. وسورّو الغبيّة فاغرة الفم حُبوراً، تتعمَّد الضحك المتصنّع، وفلورنس لا تبالي كالخنشار في الهواء. والسيّد، لم تره أبداً في حالة نفسية أفضل، لا عند ولادة ابنيه المقضي عليهما، ولا بفرحته بابنته، ولا حتى بالترتيبات التجارية الناجحة التي تباهى بها. ليس ذلك بتغيير مفاجئ، لكنه تغيير عميق. بدا في السنوات القليلة الأخيرة مزاجياً، وأقل لطفاً إلا أنه ابتهج في كل لحظة من لحظات اليقظة عندما قرّر قتل الأشجار واستبدالها ببنائه المدَنَّس هذا.

هجس بأن إعدام الأشجار بهذه الأعداد، بدون طلب الإذن منها، سيثير سوء الطالع. وها إن مخاوفه قد صحّت. أدرك ذلك عندما شارف منزله على الانتهاء. لقد أُصيب بالمرض، ولم يعد في ذهنه شيء آخر. حيّر لينا. وجميع الأوروبيين يحيرونها. أصابوها سابقاً بالذعر، ثم أنقذوها. وها إن أمرهم يلتبس عليها مجدداً وحسب. تساءلت: لماذا أرسلت السيدة فتاة أقعدها الحب للعثور على الحدّاد؟ لِمَ لا تتغلّب على كبريائها، وتنشد واحداً من المعمدانيين؟ سيكون الشمّاس أكثر من مستعد. لن

تحتاج أكثر من كلمة واحدة حتى يكون حاضراً بكليته وطوع يديها. مسكينة فلورنس، فكّرت لينا. ماذا ستفعل إن لم تتعرّض للسرقة أو القتل. وإن وجدته سالماً، فلن تعود. ولماذا تفعل؟ شاهدت لينا وهي حائرة بين بعض التسلية، ومن ثم بكثير من الكرب، ملامح الغزل الذي بدأ في صبيحة وصول الحدّاد للعمل في منزل السيّد السخيف. وقفت فلورنس جامدة، ظبيّة مرتاعة، لمّا نزل عن حصانه، وخلع قبعته، وسأل إن كان هذا مكان آل فارك. نقلت لينا سطل الحليب إلى يدها اليسرى وأشارت إلى التلّة. التفّت السيدة، وهي تقود البقرة، من حول زاوية الحظيرة، وسألته عن غرضه، وعضّت على شفتيها لما أجابها.

«يا إلَهي»، تمتمت، ثم مدّت شفتها السفلى إلى الخارج نافخة شعرها بعيداً عن جبهتها، ثم قالت: «انتظر هنا لبرهة».

قادت السيدة البقرة إلى المرعى، في الوقت الذي شبك الحداد فيه عينيه بعينيْ لينا قبل أن يعيد القبعة إلى رأسه. لم يتطلّع ولا مرّة إلى فلورنس الواقفة في الجوار، لا تتنفس، تحمل سطل الحليب بيديها الاثنتين كما لو أنها تساعد الجاذبية على إبقائها ملتصقة بالأرض. كان عليها أن تعرف العواقب المترتبة، لكنها شعرت بالثقة بأن سورّو، السهلة المنال دوماً، ستحوّل انتباهه سريعاً، وتحول دون سيلان لعاب فلورنس. وتضاعف قلقها لما علمت من سيدتها أنه رجل حرّ. لديه إذاً، حقوق وامتيازات، كالسيّد. يمكنه أن يتزوّج، ويتملّك، ويسافر، ويتاجر. عليها أن تشعر بالخطر فوراً بسبب عجرفته الواضحة.

ولما عادت السيدة، وهي تمسح يديها بمئزرها، رفع قبعته مرّة أخرى، ثم فعل أمراً لم يسبق للينا أن شاهدت أفريقياً يقوم به: نظر إلى السيدة مباشرة، خافضاً بنظراته، بسبب طوله الفارع، ولم تطرف أبداً تانك العينان الخزراوان والصفراوان كعيني الكبش. غير صحيح، إذاً، ما قد سمعته، وتسرَّب كالنار في الهشيم، من أنه يمكن النظر في عيون الأبناء والأحياء فحسب. ويشكّل الأمر للباقين جميعهم، قلّة احترام أو تهديداً. في المدينة التي أخذت لينا إليها، بعدما قضى الحريق الجائح على قريتها، يشكّل قيام أي أفريقي بهذا النوع من الوقاحة سبباً مشروعاً للضرب بالسوط. إنه لإشكال أعمق من أن يُسبر غوره. يمكن للأوروبيين قتل الأمهات، ونسف رجل عجوز في وجهه ببندقية أعلى صوتاً ودوياً من نداءات الأيّل الأميركي، لكنهم يستشيطون غضباً إذا نظر غير أوروبي إلى عينيْ أوروبي. فهم من جهة يحرقون منزلك، ثم يطعمونك، ويرعونك، ويدعون لك بالبركة. ومن الأفضل الحكم عليهم، كلّ واحد على حدة. والبرهان هو أن هذا الشخص قد يصبح صديقك، وهذا هو السبب في أنها تنام على الأرض إلى جانب سرير السيدة، وتراقب بعينيها اللتين تشبهان عينيْ صقر تحسّباً لاقتراب سورّو، أو لاحتياج السيدة إلى شيء ما.

ولو أن لينا، في الماضي البعيد، كانت أكبر سنّاً، أو تدرّبت على الاهتمام بالمرضى وشقائهم، لأمكنها أن تخفف من ألم عائلتها وجميع أولئك المحتضرين من حولها: على حصائر

من القش، يتكوّمون عند ضفاف البحيرة، يتلوّون في الطرق الضيقة داخل القرية وفي الغابة التي بعدها، لكن معظمهم يمزّقون حرامات لا يمكنهم تحمُّلها ولا التخلّي عنها. حلّ صمت الأطفال أوّلاً، وأخذت أمهاتهم، وهن يُهلن التراب على عظامهم، يتصببن عرقاً، مرتخيات كشوشة الذرة. في البداية، قامت هي والصبيّان الصغيران بطرد الغربان، لكنهم لم يضارعوا الطيور أو الرائحة. ولمّا وصلت الذئاب، تسلّق ثلاثتهم إلى أعلى ما أمكنهم، في إحدى الأشجار على الشاطئ. أمضوا ليلتهم هناك يستمعون إلى القضم، والعواء، والهمهمة والتقاتل. والأسوأ من ذلك كلّه سكون الحيوانات التي شبعت في النهاية. لم يجرؤ أي منهم، عند الفجر، على أن يطلق اسماً على الأجزاء التي انتُزعت من الجثث أو تُركت فريسةً للحشرات. وبحلول الظهر، تماماً عندما قرروا الركض في اتجاه أحد القوارب الخفيفة الراسية في البحيرة، وصل رجال ببزّات زرقاء، لُفّت وجوههم بالخرق. فقد عمّ خبر الموت الذي اكتسح قريتها. انهار فرح لينا بإنقاذها عندما ألقى الجنود نظرة على الغربان والعقبان التي تتغذى من الجثث المبعثرة في كل مكان، وأطلقوا النار على الذئاب، ثم أحاطوا القرية كلّها بالنار. لم تعرف، مع طيران الغربان بعيداً، هل يجب أن تبقى مختبئة أو تخاطر بأن تُطلق النار عليها أيضاً. لكن الصبيّين صرخا من على الأغصان إلى أن سمعهما الرجال وأمسكوا كلاً منهما بذراعه عندما قفزا، قائلين «هدوء أيها الصغيران. هدوء». ولو أنهم خافوا من أن يصيبهم الناجيان

الصغيران بالعدوى، لاختاروا تجاهل الأمر، لكونهم جنوداً حقيقيين، يرفضون ذبح الأولاد الصغار.

لم تعرف أبداً إلى أين أخذوا الصبيين، أما هي فأُخذت لتقيم في وسط مشيخيين لطفاء. قالوا إنهم سرّوا لوجودها معهم لأنهم معجبون بالنساء المحلّيات اللواتي يعملن جاهدات مثلهم، لكنهم يحتقرون الرجال من أبناء منطقتهم الذين لا يفعلون، طوال النهار، سوى صيد السمك والطيور مثل صغار الأشراف. الأشراف المعدمون، هذا هو الأمر، لأنهم لا يملكون شيئاً، وبالتأكيد ليس الأرض التي ينامون عليها، مفضّلين العيش كمتسوّلين ذوي ألقاب. ولأن بعض شيوخ الكنيسة سمعوا قصصاً رهيبة، أو شاهدوها بأنفسهم، عن غضب الله على المتبطّل والدنيوي، ملقياً بالموت الأسود تعقبه النار الثائرة على مسقط رأسهم – المدينة المتكبرة والمجدّفة – فلا يسعهم سوى الصلاة كي يدرك شعب لينا، قبل أن يموت أفراده، أن ما أُنزل بهم ليس سوى الإشارة الأولى إلى استيائه: صبّ واحدة من كؤوس سخطه السبع، على أن تُعلِن الأخيرة عن مجيئه وعن ولادة أورشليم الجديدة. أطلقوا عليها اسم ميسالينا، تحسّباً، لكنهم اختصروه إلى لينا في إشارة إلى ومضة ضئيلة من الأمل. خافت لينا أن تخسر، مرّة أخرى، مأواها، وارتعبت لأنها وحيدة في العالم دون عائلة، فاعترفت بوضعها كوثنية، وقبلت بأن يتم تطهيرها على أيدي هؤلاء الأفاضل. تعلّمت أن الاستحمام عارية في النهر خطيئة؛ وأن قطف الكرز عن شجرة تعج به سرقة؛ وتناول هريسة الذرة بالأصابع فساد؛ وأن الله يكره التبطّل أكثر

من أي شيء، وبالتالي، فإن التحديق في الفراغ نوحاً على أم أو رفيقه لعب، هو بمثابة التودّد إلى اللعنة، وتغطية الجسد بجلود البهائم تسيء إلى الله، لذلك أحرقوا ثوبها المصنوع من جلد الظبية، وأعطوها ثوباً جيداً من القماش الخشن. اقتطعوا الخرز من ذراعيها، وقصّوا مقدار إنشات عدة من شعرها، وضمّوها إلى صلواتهم اليومية قبل الإفطار وعند الظهر وفي المساء، إلا أنهم لم يسمحوا لها بمرافقتهم إلى قداديس الأحد التي يشاركون فيها. لم ينفع الاستسلام، والتوسّل، والتضرّع، والإشادة وهي راكعة، بعدما انفجرت فيها برغم ذلك صفة ميسالينا الحقيقية، وتخلّى عنها المشيخيون بدون أي همسة وداع.

مضى بعض الوقت وهي تكنس أرضية السيّد الترابية، وتحرص على تفادي الدجاجة التي تحتضن البيض في الزاوية، وقررت أن تقوّي نفسها بجمع فتات علّمتها إياه والدتها قبل أن تموت وهي تتعذب. اعتمدت على ذاكرتها وسعة حيلتها لتجمع الشعائر المُهمَلة، وتدمج الطب الأوروبي مع الوصفات المحلية، والكتابات المقدسة مع المعرفة المتوارثة. واستذكرت المعاني الخفية للأمور، وأحياناً اخترعتها بعبارات أخرى. لقد وجدت سبيلاً لوجودها في العالم. لا راحة ولا مكان لها في القرية. السيد حاضر في المكان، وغائب عنه. ولولا أنها اكتسبت مهارات الناسك وأصبحت شيئاً آخر إضافياً يتحرّك في العالم الطبيعي لَسحقتها الوحدة. تعقت مع العصافير، وحادثت النباتات، وتحدّثت إلى السناجب، وغنّت للبقرة، وفتحت فاها

للمطر. انكمش خزيها بنجاتها من موت عائلتها وأحبائها بعدما عاهدت نفسها على عدم خيانة أي شخص تحبه، أو التخلّي عنه. ذكريات قريتها التي يسكنها الموتى، تحوّلت ببطء إلى رماد، وارتفعت مكانها صورة وحيدة: النار. فكم التهمت بسرعة وبتعمّد كل ما بُني، وكل ما كان حيّاً. فهي مُطهِّرة بطريقة ما وفاضحة بجمالها. تشعر بوخزة وجع لطيفة من الاضطراب، وهي أمام أرضية موقد بسيطة، أو تشجّع اللهب على غلي الماء.

أصبح السيّد، وهو ينتظر وصول الزوجة، إعصاراً من الحركة يكدّ لإخضاع الطبيعة لسيطرته. وفي أكثر من مرة، وجدته لينا، وهي تحمل له غداءه إلى الحقل أو إلى الأرض المخصّصة للأشجار، وقد رمى برأسه إلى الخلف، يتفرّس في السماء كما لو أنه في تساؤل يائس حيال رفض الأرض الامتثال لإرادته. اهتمّا معاً بالطيور والمواشي، وزرعا الذرة والخضار. إلا أنها هي التي علّمته كيفية تجفيف السمك الذي يصطادانه؛ والاحتساب المسبق للتفقيس، وطريقة حماية المحصول من كائنات الليل. لكن أياً منهما لم يعرف ما العمل في شأن أربعة عشر يوماً من المطر، أو خمسة وخمسين نظيرها من الجفاف. غُلب على أمرهما عندما نزل الذباب بالأفواج، فأقعد المواشي، والحصان، وأجبرها على اتخاذ ملجأ لها في الداخل. لم تعرف لينا، نفسها، الكثير، لكنها أدركت كم هو مزارع ضعيف. فهي، على الأقل، تستطيع تمييز العشب من النبتة. افتقر إلى الصبر، وإلى قوام حياة المزارع، وامتنع عن السعي إلى الانتصاح من القرويين المجاورين، وكان غير مستعد أبداً للتقلّبات العنيفة

والساخرة في الطقس، ولم يتقبّل واقع أن الوحوش الكاسرة المنتشرة لا تعرف من هو صاحب طريدتها، ولا تبالي بهويته أياً يكن. تجاهل تحذيراتها من استخدام سمك الطرّيخ سماداً، ليرى أن بقع الأرض ذات الخضار الغضة قد اقتلعتها الحيوانات الباحثة عن الكلأ بعدما اجتذبتها الرائحة. كما أنه لم يزرع القرع بين الذرة، فهو، على الرغم من قبوله أن النبتة المتسلّقة تمنع نمو العشب، لم يحب مظهرها غير المنتظم. لكنه كان نافعاً مع الحيوانات وفي التعامل مع الأشياء.

إنها لحياة جاحدة. وهي، ما لم يصبح الطقس خطراً، تآلفت مع الحياة مع فراخ الدجاج إلى أن بنى على عجل حظيرة للبقر في يوم واحد، قبيل مجيء الزوجة. ومن المؤكد أنه في خلال ذلك الوقت كلّه، تفوّهت لينا بخمسين كلمة ما عدا ما كان يُنتظر سماعه منها: «نعم، سيدي». ولو أنها لم تمضِ تلك السنوات الست التي سبقت موت العالم لحطّمتها الوحدة والأسف والحدّة. صحبة الأولاد الآخرين، النساء المجتهدات المتزينات بالجواهر الجميلة، خطة الحياة المهيبة: متى يتم الإخلاء، والحصاد، والحرق، والصيد؛ مراسم الموت، والولادة، والعبادة. رتبّت وخزّنت ما تجرأت على تذكّره وألغت الباقي، وهو نشاط سوّاها من الداخل والخارج. ومع وصول السيدة، بات اختراع ذاتها شبه مُستكمَل، وسرعان ما أصبح ذلك لا يُقاوَم.

وضعت لينا حصى سحرية تحت وسادة السيّدة، وحافظت

على نضارة الغرفة وعبق رائحتها بواسطة النعناع، وغلت جذور حشيشة الملائكة وسكبتها في فم مريضتها المتقرّح لسحب الأرواح الشريرة من جسمها. حضّرت أقوى علاج تعرفه: حشيشة الجرب، حبق الراعي، الأوفاريقون، كزبرة البئر، وحلزون البحر. غلتها، وصفّتها، وأدخلتها بالملعقة بين أسنان السيدة. فكّرت في تكرار بعض الصلوات التي تعلّمتها من المشيخيين، لكنها قررت ألا تفعل، لأن أي واحدة منها لم تنقذ السيّد. فقد رحل سريعاً، وهو يصرخ بالسيدة، ثم هامساً وراجياً أن يُنقل إلى منزله الثالث. المنزل الكبير، عديم الفائدة الآن لعدم وجود أولاد أو أحفاد يعيشون فيه، ويملأونه بالحياة. ما من أحد ليقف وهو يشعر بالمهابة أمامه، أو للإعجاب بالبوابة المشغولة التي استغرقت الحداد شهرين لإنهائها. تلتقي في أعلاها حيّتان نحاسيتان. ولما فتحوها تلبية لرغبة السيد الأخيرة، شعرت لينا كأنها تدخل عالم الملعونين. لكن عمل الحداد، إذا شكل مضيعة مبتذلة لوقت رجل بالغ، فإن حضوره لم يكن كذلك. فقد حوّل فتاة إلى امرأة وأنقذ حياة أخرى. سورّو. سورّو صاحبة العينين الشبيهتين بعينيْ أنثى الثعلب، مع أسنان سوداء ورأس ذي شعر صوفي بلون مغيب الشمس لم يتم أبداً تعهده بالرعاية. قَبِلَ بها السيد، ولم يشترها، وقد انضمت إلى العائلة بعد لينا، لكن قبل فلورنس. وهي لا تزال لا تملك أي ذكرى عن حياتها الماضية سوى أن الحيتان جرّوها إلى الشاطئ.

«ليست الحيتان»، قالت السيدة. «بالتأكيد لا. كانت تتخبط في ماء النهر الشمالي في مقاطعة موهاك، شبه غريقة، لما

سحبها نجارا خشب شابان من الماء. ألقيا بغطاء فوقها، وأتيا بوالدهما إلى ضفة النهر حيث هي ممدّدة. قيل إنها عاشت وحدها على سفينة غارقة. واعتقدا أنها صبي».

لم تتحدّث، ولم تحكِ أبداً عن كيفية وصولها إلى هناك، أو أين كانت. أسمتها زوجة النشّار سورّو «خزي»، لسبب وجيه، فكّرت لينا. وبعد شتاء طويل من إطعام الفتاة الخرقاء التي كانت في حالة ضياع، لا تعرف شيئاً وتعمل أقلّ مما تعرف، فتاة سوداوية غريبة، أخذ ولداها يهتمان بها عن كثب، طلبت امرأة النشّار من زوجها التخلّص منها فوافق وعهد، بها إلى عناية زبون يثق بأنه لن يسبب لها الأذى. إنه السيّد. بوصول سورّو، وهي تمشي في أثر حصان السيّد، بالكاد أخفت السيدة انزعاجها، لكنها اعترفت بأن في المكان متسعاً لخادمة. فإذا كان السيّد ميّالاً إلى السفر، فإن مزارعين وفتاة في الرابعة من العمر، لسن بكافيات. كانت لينا فتاة طويلة القامة في الرابعة عشرة عندما جاء بها السيّد من المشيخيين. كان قد بحث في الإعلانات المعلّقة في مطابع البلدة. «امرأة فالحة سبق لها أن أصيبت بالجدري والحصبة... زنجي فالح في حوالى التاسعة. فتاة أو امرأة ماهرة في شؤون المطبخ، تتكلم إنكليزية جيدة، لون البشرة بين الأصفر والأسود. امرأة بيضاء للعمل لمدة خمس سنوات تجيد العمل في الريف، ومعها ولد يزيد عمره على السنتين. رجل خلاسي نقر الجدري وجهه كثيراً، أمين ورزين. فتى أبيض صالح للخدمة. مطلوب خادم، أبيض أو أسود، يمكنه قيادة عربة. امرأة رزينة وحريصة. فتاة فالحة،

بيضاء، في التاسعة والعشرين ومعها ولد. صلب العود وبصحة جيدة.. قوي ذو صحة جيدة فالح ورزين رزين رزين»... إلى أن وصل إلى «أنثى صلبة العود، مُنَصَّرَنَة ومتمكنة من جميع أعمال المنزل، لقاء بضائع أو نقود».

وهو العازب الذي يتوقع وصول زوجة جديدة، يحتاج بالتحديد إلى أنثى من هذا النوع في أرضه. عند ذاك الحد كانت عين لينا المتورّمة قد سكنت، والتأمت جروح السوط في وجهها وذراعيها وساقيها، وبالكاد تمكن من ملاحظتها. لم يسأل المشيخيون قط، وقد استذكروا ربما تبصّرهم في الاسم الذي أطلقوه عليها، عمّا حلّ بها، ولا توجد فائدة في إطلاعهم على ذلك. وهي لا مقام قانونياً لها، ولا شهرة، ولن يأخذ أحد بكلامها ضد أي أوروبي. وما قاموا به هو أنهم شاوروا الطبّاع في شأن الكلمات التي يجب إيرادها في الإعلان: «أنثى صلبة العود...».

عندما نزلت الزوجة الأوروبية من العربة، حلّ العداء بينهما على الفور. لقد انزعجت الزوجة مما تتمتع به هذه الأنثى الشابة التي تولّت المسؤولية سابقاً، من صحة وجمال وبينما أدى تولّي الفتاة الأوروبية الخرقاء السلطة إلى إثارة حنق لينا. لكن الشحناء، عديمة الجدوى في البرّية، وُئدت في المهد. ولم تستطع أي منهما الإبقاء على البرودة بينهما حتى قبل أن تلعب لينا دور القابلة في ولادة طفل السيدة الأول. فلا قيمة أبداً للمنافسة الخادعة في أرض على هذه الدرجة من التطلّب، ثم

إنهما شكّلتا صحبة لبعضهما البعض، واكتشفتا، مع الوقت، شيئاً أكثر استثاراً بالاهتمام من المكانة. ضحكت ريبيكا بصوتٍ عالٍ على أخطائها، ولم يُربكها طلب المساعدة. صفعت لينا جبهتها عندما نسيت الصعرور يتعفّن في القش. صارتا صديقتين. ليس فقط لأن على إحداهما سحب لسعة الزنبور من ذراع الأخرى، وليس فقط لأن الأمر يتطلب اثنتين لدفع البقرة بعيداً من السياج، ولا لأن على إحداهما الإمساك بالرأس بينما تربط الأخرى القوائم، بل بالأحرى لأن أياً منهما لا تعرف بالتحديد ما الذي تفعله أو كيف. تعلمتا معاً عن طريق التجربة والخطأ: ما الذي يُبقي الثعالب بعيدة؛ وكيف ومتى تتم معالجة السماد ونشره؛ والفارق بين المُميت والسّامّ والصالح للأكل؛ والطعم الحلو لعشبة ذنب القط؛ وملامح الخنزير المحصوب؛ وما الذي يحوّل خروج الطفل إلى سائل، وما الذي يقتيه ليصيب بالألم. عمل المزرعة، بالنسبة إلى سيدتها، مغامرة أكثر من كونه مشقة. ثم، فكّرت لينا في أن لديها السيد الذي يُرضيها أكثر وأكثر، وقد رُزقت منذ وقت قريب بابنة، باتريسيا، بعدما كدّرتهما حسرة الولدين قصيريْ العمر اللذيْن أنجبتهما لينا وقامت بدفنهما، واحداً كل سنة. وفي الوقت الذي جلب فيه السيّد سورّو إلى المنزل، شكّلت النساء المقيمات جبهة وحّدها الارتياع. كانت، بالنسبة إلى السيدة، عديمة النفع. شعر أحمر، أسنان سوداء، دمامل متكررة في عنقها، ونظرة في تينك العينين الفضيتين - الرماديتين ذواتيْ الأهداب المبالغة في الطول، يقشعر لها شعر مؤخرة عنق لينا.

راقبت السيّدة وهي تدرّب سورّو على الخياطة: العمل الوحيد الذي أحبته وأجادته. لم تقل شيئاً عندما قام السيد، للحد من شكواها، كما ادّعى، بجعل الفتاة تنام، في جميع الفصول، إلى جانب الموقدة. وهو رفاه أثار ريبة لينا، لكنها لم تحسده حتى في ظل الطقس السيئ. فقد بنى قومها، على مدى ألف سنة، مدناً عامرة، ولربما استمروا في بنائها لألف سنة أخرى لولا أقدام الأوروبيين التي أتت بالموت. لكن تبين أن الزعيم مخطئ للغاية. لم يهرب الأوروبيون ولم يموتوا. بل إذا صدق ما قالت المرأة العجوز المسؤولة عن الأولاد، فقد اعتذر عن هذا الخطأ، واعترف بأنه مهما مات كثير منهم نتيجة الجهل أو المرض، فسيأتي دوماً المزيد. سيأتون بلغاتٍ أشبه بنباح الكلب؛ مع جوع صبياني إلى فرو الحيوانات. وسيسيّجون دوماً الأراضي، ويشحنون أشجاراً بكاملها إلى دول بعيدة. يأخذون أي امرأة للذة عابرة. يتلفون التراب، ويلوّثون الأماكن المقدسة ويعبدون إلهاً بليداً ظلاميّ الخيال. تركوا خنازيرهم ترعى شاطئ المحيط وتحوّله إلى كثبان من الرمل لا يمكن لاي شيء أخضر أن ينبت فيها من جديد. أصرّوا، وقد انفصلوا عن روح الأرض، على شراء ترابها، وهم، على غرار جميع اليتامى، لا يكتفون. قدرهم أن يدمّروا العالم ويبصقوا فظائع ستؤدي إلى دمار جميع الشعوب الأصلية. ليست لينا على هذه الدرجة من اليقين. علمت، من الطريقة التي حاول فيها السيد والسيدة إدارة مزرعتهما، بوجود استثناءات لنبوءة الزعيم المنقّحة. بدا أنهما على دراية بالفارق بين الأرض والملكية، وسيّجا ماشيتهما، ولو

أن جيرانهما لم يفعلوا. وترددا في قتل الخنازير المعلوفة على الرغم من أن القيام بذلك مشروع. أملا العيش من الحراثة بدلاً من الاستيلاء على الأرض مع القطعان، وهي إجراءات أبقت أرباحهما متدنية. لكن لينا التي وثقت إلى حد ما، بحكمهما على الأمور، لم تثق بغرائزهما. ولو أنهما امتلكا استبصاراً حقيقياً، لَما أبقيا سورّو على هذه المقربة.

كانت صحبة شاقة، تحتاج إلى انتباه دائم، كما في فجر هذا اليوم بالذات عندما ائتُمنت، للضرورة، على حلب البقرة. ولأن حملها أعاق حركتها على المقعد، أساءت التعامل مع الضرع، وقامت البقرة، كما قالت سورّو، بالرفس. غادرت لينا غرفة المريضة لتتعهّد العِجْلة: لتتحدث إليها أولاً، ولتدندن لها بعض الشيء، ثم لتدهن بلطف أثداءها الطرية بكفها المليئة بالزبد. جاء الدفق متفرّقاً، لا نفع منه سوى أنه يريح البقرة، وهرعت لينا عائدة إلى المنزل بعدما دهنتها بالزبد حتى ارتاحت. ما من أمر جيد يمكن أن ينتج عن ترك سورّو وحدها مع السيدة، وهي باتت الآن أقل ركوناً إليها وقد انخفض بطنها الحامل بالطفل. فالفتاة، في أفضل الأحوال، تجرّ البؤس كالذَّنَب. وُجد رجل مثلها في قرية لينا. نسيت اسمه، كما نسيت ما بقي من لغتها، لكنه يعني «الأشجار تتساقط من ورائه»، ويوحي بتأثيره في محيطه. وفي حضور سورّو، لا يسمح البَيْض لنفسه بأن يُخفق ليصبح رغوة، ولن يخفف الزبد من مخفوق الكعكة. ولينا متأكدة من أنه يمكن وضع الوفاة المبكرة لابني السيدة عند أقدام اللعنة الطبيعية، التي هي سورّو. شعرت لينا، بعد وفاة الولد الثاني،

بأنها مضطرة إلى إبلاغ السيدة بالخطر. كانتا تعدّان طعاماً من اللحم المفروم ليصبح جاهزاً لعودة السيّد. بَرَدَت الآن الكوارع التي كانت تغلي، منذ الصباح، على نار خفيفة. عظامها المقطّعة موضوعة على الطاولة، في انتظار إضافة الدهون والغضاريف لغليها.

قالت لينا: «يتعمّد بعض الناس فعل الشرّ، وثمّة آخرون لا يمكنهم أي شيء حيال الشر الذي يفعلونه».

رفعت السيدة نظرها إليها، «ما الذي تقولينه؟».

«ابنك، جون جاكوب، مات بعد وصول سورّو».

«توقّفي يا لينا. لا توقظي تعاسة قديمة. طفلي مات بالحمّى».

«لكن باتريسيان مرضت أيضاً ولم . . .».

«قلت توقفي. يكفي أنه مات بين ذراعي، ولا حاجة إلى مزيدٍ من الكلام الفارغ الهمجي». ومضت، بصوت صارم، في وصف ضعف مناعة جميع الأطفال عند بروز الأسنان، وهي تقطع اللحم، ومن ثم تخلطه بالزبيب وقطع التفاح والزنجبيل والسكّر والملح. دفعت لينا بمرطبان كبير إلى قُرْبِ، وسكبت كلتاهما المزيج فيه، ثم ملأته لينا حتى الشفة بالبراندي وأحكمت إغلاقه. أربعة أسابيع أو أكثر وسيصبح جاهزاً للوجبة عند الميلاد. أسقطت السيدة، في غضون ذلك، نخاع العجل وقلبه في قدر من الماء المغلي المطيّب بالتوابل. يشكّل مثل هذا العشاء، المقلي بالزبدة والمزيّن بشرائح البيض، تدليلاً.

كأنه لم يكفها أن سورّو أقل ركوناً إليها، وتكثر من الشرود للحديث إلى الأعشاب والكرمة، فها هي حامل أيضاً. وقريباً جداً ستحصل ولادة بتول أخرى. وربما، لسوء الحظ، هذا المولود لن يموت. لكن، ماذا لو ماتت السيّدة؟ فإلى من يلجآن؟ صحيح أن المعمدانيين ساعدوا السيّد مرّة بسخاء على بناء منزله الثاني وملحقاته، وانضموا إليه عن طيب خاطر في قطع أشجار الصنوبر الأبيض من أجل أعمدة السياج، لكن برودة نشأت بينهم وبين عائلته، تعود في بعض أسبابها، إلى أن السيّدة كرهتهم لمنعهم أطفالها من دخول الجنة، وفي بعض آخر، فكّرت لينا، لأن غموض سورّو أفزعهم. قد يأتي المعمدانيون، بزوج من سمك سليمان، أو يقدمون مهداً، انتفت الحاجة إليه، إلى طفل السيدة. وأمكن الاعتماد على الشمّاس بسلالٍ من توت الأرض والعنب البرّي، وجميع أنواع الجوز، وفي إحدى المرّات بفخذ غزال كامل. والآن، طبعاً، ما من أحد، معمدانياً كان أو غيره، سيأتي إلى منزلٍ مصابٍ بداء الزهري. لم يأت أي من ويلارد أو سكالي، وقد خيّبها ذلك على الرغم من أنه لا يجب. عدد سنوات ويلارد آخذ في الازدياد ولا يزال يعمل للفوز بتذكرة عبوره. قال إن السنوات الأساسية السبع امتدّت إلى نحو العشرين، وقد نسي منذ زمن طويل معظم الارتكابات التي استمرت في إطالة عبوديته، وتلك التي يتذكّرها بابتسامة تتضمن الروم؛ والأخرى شكّلت محاولات للفرار. سكالي، الشاب، الدقيق العظام، مع آثار جروح خفيفة تطرّس ظهره، يملك خططاً. فهو ينهي عقد أمّه. صحيح أنه لا يعرف كم سيستغرق

الأمر، لكنه تباهى بأن عبوديته، على عكس ويلارد أو لينا، ستنتهي قبل الموت. إنه ابن امرأة أرسلت إلى المستعمرات بسبب «فجورها وعصيانها»، ولم يتم، بحسب قوله، قمع أي منهما. نقل موتُها عقدَها إلى ابنها. ثم إن رجلاً زعم أنه والد سكالي، سدّد الدَّين، واستردّ بعض المصاريف من خلال تأجير الصبي لسيّده الحالي لفترة من الوقت ستنتهي قريباً، على الرغم من أن سكالي لا يدري متى بالضبط. أبلغ لينا بوجود ورقة قانونية تقول ذلك. خمّنت أنه لم يرها، وهو لن يمكنه حلّ رموزها لو فعل. كل ما يعرفه هو أن أجر الحرية سيكون على ما يكفي من السخاء ليشتري حصاناً، .أو ليشرع في تجارة. تساءلت لينا عن أي تجارة يحكي، وفكّرت في أنه إذا لم يأتِ يوم أجور الحرية المجيد قريباً، فسيهرب هو أيضاً، وربما يتمتع بالحظ الجيّد الذي امتنع على ويلارد. وقد يصبح لكونه أكثر نباهة ورزانة من الرجل الأكبر سناً. وهي، على الرغم من ذلك، تشكّ في الأمر؛ وتفكر في أن أحلامه ليست إلا في بيع عمله. تعرف أنه لا يمانع في الاستلقاء مع ويلارد عندما لا يكون النوم هو القصد. ولا عجب في أن ليس لدى السيّد، وهو بدون قريب أو أبناء يعتمد عليهم، ذكور في ملكيته. ولهذا مغزى جيد، إلا عندما لا يكون. كما هي الحال الآن مع امرأتين منتحبتين، إحداهما طريحة الفراش، والأخرى حامل؛ وفتاة حطّمها الحب وشرّدها، وهي نفسها غير متأكدة من كل شيء، بما في ذلك طلوع القمر.

لا تموتي، يا سيدة. لا تفعلي. فهي نفسها، وسورّو، وطفل

مولود حديثاً، وربما فلورنس - ثلاث نساء وطفل بدون سيّد - وحدهم، لا يخصّون أحداً، ويصبحون لعبة هوجاء لأي كان. لا يمكن لأيٍّ منهم أن يرث، ولا يرتبط أحدهم بكنيسة، ولا هو مدوّن في سجلاتها. إنهن نساء وغير شرعيات، وإذا بقين بعد وفاة السيدة، فسيكون هناك متطفّلون، ومحتلّون، وسيصبحن عرضة للبيع، والاستخدام، والاعتداء، والخطف، والنفي. يمكن المعمدانيين أن يطالبوا بالمزرعة أو يبيعوها بالمزاد. استمرأت لينا مكانها في هذه العائلة الصغيرة المترابطة، لكنها ترى الآن حماقة الأمر. اعتقد السيّد والسيّدة أنه في وسعهما الحصول على حياة شريفة حرّة التفكير، إلا أن كل عملهما، في غياب الوريث، يعني أقل من عش للسنونو. فانكفاؤهما عن الآخرين أنتج خصوصية أنانية، وخسرا الملجأ والسلوى اللذين تشكلهما العشيرة. توجد حاجة إلى محيط خارجي ما، سواء أكان مؤلفاً من المعمدانيين أم المشيخيين، من قبيلة أم جيش أم عائلة. فكّرت في الكبرياء. الكبرياء وحدها جعلتهما يعتقدان أنهما لا يحتاجان إلا إلى نفسيهما، وأنه في وسعهما بناء حياتهما بهذه الطريقة، على غرار آدم وحواء، مثل آلهة من لامكان غير متمسكة بأي شيء سوى بخلقها الخاص. عليها أن تحذّرهما، لكن إخلاصها حذّرها من التطاول. سهل جداً إخفاء الحقيقة ما دام السيّد على قيد الحياة: إنهم ليسوا عائلة، ولا حتى مجموعة متماثلة في الرأي. إنهم جميعهم - وكل واحد منهم - يتامى.

تفرّست لينا من خلال الزجاج المموّج للنافذة الصغيرة، حيث سكبت الشمس الفاتنة نوراً أصفر خافتاً في اتجاه أسفل

سرير السيدة. ووراء الجانب الأبعد من الطريق تنتصب غابة من شجر الزان. وكعادتها في الغالب، تحدّثت إليها.

«هذه الأرض موطننا، أنت وأنا. لكنني، على عكسك، منفية هنا».

ها إن سيّدة لينا تغمغم الآن. تخبر لينا، أو نفسها، قصة ما، أمراً ذا أهمية خطيرة كما يظهر من الحركة السريعة لعينيها. تساءلت لينا عما هو على هذا القدر من الأهمية حتّى يدفعها إلى استخدام لسانها في فمها المليء بالدمامل؟ ارتفعت يداها المشبوكتان ولوّحتا. استدارت لينا لتنظر إلى حيث حدّدت عينيها. إنه صندوق تحتفظ فيه السيدة بأشياء جميلة، هدايا من السيّد غير مستخدمة ومدخرة. طوق محكم، وقبعة لا يمكن رؤية أي امرأة محتشمة ترتديها، وقد انكسرت ريشة الطاووس التي تعلوها في دولاب الثياب. وفوق بضعة أطوال من الحرير، توجد مرآة صغيرة وُضعت في إطار مزخرف وقد كمدت فضّته وأصبحت كالسخام.

«أعطني إياها»، قالت السيدة.

التقطت لينا المرآة وهي تفكّر: رجاءً، لا. لا تنظري. لا تنشدي وجهك أبداً حتى وأنت سليمة، كي لا يشرب الانعكاس روحك.

«أسرعي»، أنّت السيدة، بنبرة متوسّلة مثل نبرة طفل.

ليس في مقدور لينا العصيان، فجاءت بها إلى السيدة.

وضعتها بين يديها ذواتيْ القفّازين، وقد تأكدت الآن من أن سيدتها ستموت. شكّل هذا اليقين نوعاً من الموت لها أيضاً، لأن حياتها، وكل شيء، يعتمدان على نجاة السيدة التي تعتمد بدورها على نجاح فلورنس.

وقعت لينا في حبها على الفور، ما إن رأتها ترتجف في الثلج. طفلة خائفة، ذات عنق طويل لم تتكلّم لأسابيع. لكن عندما فعلت، كان صوتها الغنائي الخفيف طيّباً على السمع. فالطفلة، لسبب ما، وبطريقة ما، لطّفت من حنين لينا الخفيف، والأبدي، إلى المنزل الذي عرفته مرّة عندما حظي كل واحد بأي شيء، ولم يمتلك أحد كل شيء. ربما زاد عقمها من حدة تعلّقها الشديد. وقد أرادت، في أي حال، حمايتها وإبعادها عن الفساد الطبيعي جداً لشخص مثل سورّو، وصمّمت في وقت أقرب على أن تقف حاجزاً بين فلورنس والحدّاد. فمنذ مجيئه والفتاة تملّكتها شهوة أدركت لينا أنها الشهوة التي تملّكتها مرّة. رغبة مُتأوّهة تعدو الإحساس، بلا وعي. الجسد الشاب يتحدّث لغته الخاصة: سببه الوحيد للحياة على الأرض. عندما وصل، برّاقاً جدّاً، فارع الطول كثيراً، متعجرفاً وماهراً معاً، وحدها لينا رأت الخطر، لكن ما من أحد لتشتكي إليه. فالسيدة أخذتها السعادة لأن زوجها في المنزل، والسيّد تصرّف كما لو أن الحداد أخ له. رأتهما لينا يحنيان رأسيهما فوق خطوط مرسومة في التراب. ورأت السيّد، في مرّة أخرى، يقطّع تفاحة خضراء، وجزمته اليسرى مرفوعة على صخر، وفمه يتحرّك مع يديه: الحدّاد يومئ برأسه، ينظر بإمعان إلى مستخدمه. السيّد، بقدر

كبير من اللامبالاة، وضع قطعة تفاح على رأس سكينه وقدّمها إلى الحداد الذي، بالقدر نفسه من اللامبالاة، تناولها ووضعها في فمه. وهكذا، أدركت لينا أنها الوحيدة المتنبّهة إلى الانهيار الذي يسرق طريقه إليهم. الوحيدة التي توقّعت التمزّق والخراب اللذين سيسببهما رجل أسود حرّ. فهو قد حطّم فلورنس بالفعل، لأنها رفضت أن ترى أنها تتشوّق إلى رجل لم يزعج نفسه حتى لوداعها. وعندما حاولت لينا تنويرها بقولها «أنت مجرّد ورقة واحدة في شجرته»، هزّت فلورنس برأسها، وأغمضت عينيها، وأجابت «لا، بل أنا شجرته». تبدّل مفاجئ ليس أمام لينا سوى أن تأمل ألّا يكون نهائياً.

شكّلت فلورنس نسخة هادئة، خجولة عنها في زمن انتقالها، قبل الدمار؛ قبل الخطيئة؛ قبل الرجال. حامت لينا حول باتريسيان، متنافسة مع سيدتها على عطف الفتاة الصغيرة. أما فلورنس هذه، الآتية في أعقاب وفاة باتريسيان، فيمكنها، بل عليها أن تكون لها. ستصبح نقيض سورّو التي لا ترعوي. وفلورنس تعرف القراءة والكتابة من قبل. ولا تحتاج إلى أن يُقال لها تكراراً كيف تنجز عملاً ما. وهي ليست أهلاً للثقة على الدوام وحسب، بل ممتنّة أيضاً بقوة لكل ذرّة عطف، وأي تربيتة على الرأس، وأي ابتسامة رضى. امضتا ليالي لا تُنتسى، مستلقيتين معاً، وفلورنس تستمع بمتعة ساكنة إلى قصص لينا. قصص رجال فاجرين قطعوا رؤوس زوجات مخلصات؛ كاردينالات نقلوا أرواح أولاد طيبين إلى مكان، الزمنُ بنفسه فيه طفل. وهي تطلب بنوع خاص قصصاً عن أمهات يحاربن لإنقاذ

أولادهن من الذئاب والكوارث الطبيعية. استذكرت لينا، وقلبها يكاد ينفطر، واحدة مُفضّلة وما تبعها من محادثة جرت همساً.

جاء في القصة أنه، في أحد الأيام، وضعت أنثى نسر بيضها في عشّ عالٍ جداً، وبعيدٍ جداً عن الأفاعي وذوات المخالب التي تتصيدها. عيناها بلون سواد منتصف الليل، تشعّان وهي تتعهدها بالرعاية. وعند ارتعاشة أي ورقة، ورائحة أي حياة أخرى، يزداد عبوسها، وينتر رأسها، وينتصب ريشها بسكون. تسنّنت مخالبها على الصخور؛ ومنقادها أشبه بمحصدة آلة حرب. إنها شرسة في حمايتها صغارها التي توشك على الولادة. لكن ثمة أمراً واحداً لا يمكنها مجابهته: أفكار الرجل الشريرة. تسلق مسافر، في أحد الأيام، جبلاً محاذياً، وقف على قمته معجباً بكل ما يراه من تحته. البحيرة الفيروزية، الشوكران الأبدي، الزرازير المبحرة في الغيوم التي يشقها قوس القزح. ضحك المسافر للجمال قائلاً، «هذا ممتاز. هذا لي». وانتفخت العبارة، وهدرت كالرعد في الوديان، وفوق فدادين من زهور الربيع والخبّيز. خرجت الكائنات من كهوفها متسائلة عما يعنيه ذلك. «لي. لي. لي.»، اهتز قشر بيض النسر، بل إن إحداها تشقّقت. أدارت أنثى النسر رأسها لتعثر على مصدر الرعد الغريب الذي ليس له معنى، ولتعرف حقيقة الصوت غير المفهوم. حدّدت مكان المسافر، فانقضت نزولاً لتبعد بمخالبها ضحكته وصوته المخالف للطبيعة. لكن المسافر، وقد تعرّض للهجوم، رفع عصاه وضرب بكل قوته جناحها. سقطت وهي تصرخ، من فوق البحيرة الفيروزية، إلى ما هو أبعد من

الشوكران الأبدي، نزولاً عبر الغيوم التي يشقها قوس القزح. صرخت، وصرخت وقد استطارها الريح بدلاً من الجناح.

وعندها تهمس فلورنس، «وأين هي الآن؟».

«لا تزال تسقط»، تجيب لينا، «إنها تسقط إلى الأبد».

بالكاد فلورنس تتنفس. وتسأل، «ماذا عن البيض؟».

«فقست وحدها»، تقول لينا.

«هل عاشت؟»، أصبح همس فلورنس ملحّاً.

«لقد فعلنا»، قالت لينا.

تتنهد فلورنس عندها. وعندما يأتيها النوم، ورأسها متكئ إلى كتف لينا، تستمر البسمة تعلو وجه الفتاة الصغيرة. التعطش إلى الأم - أن تكوني واحدة أو تلديك واحدة -، فكلتاهما تتمايل من تأثير ذلك التوق الذي تعرف لينا أنه يبقى حياً يجوب العظم. تعلّمت فلورنس سريعاً، وهي تنمو، وتشوّقت إلى معرفة المزيد، وكانت الشخص المثالي للعثور على الحداد لو لم تقعدها عبادتها له.

لمّا اختارت السيدة أن تجنّن نفسها بالتحديق في وجهها في المرآة، أغمضت لينا عينيْها حيال ذلك الاستحضار المتهوّر للحظ السيئ وغادرت الغرفة. ثمة كومة من الأعمال تنتظر، ولا يمكن، كالعادة، العثور على سورّو. وسواء كانت حاملاً أم لا، كان يمكنها على الأقل أن تنظف المقاعد. دخلت لينا حظيرة البقر ومرّت بنظرها على العربة الزلاجة التي كانت تنام فيها هي

وفلورنس في الطقس البارد. وتنهدت لدى رؤية نسج العنكبوت الممتد من ورقة العشب إلى الزهريّة، ثم حبست أنفاسها. فحذاءا فلورنس، المصنوعان من جلد الأرتب، اللذان صنعتهما لها منذ عشر سنوات، موضوعان تحت العربة: وحيدَيْن، فارغَيْن مثل تابوتين صابرين. غادرت الحظيرة، وقد اهتزّت، ووقفت عند الباب جامدة. إلى أين تذهب؟ لم تستطع تحمّل الشفقة على الذات التي دفعت بالسيدة إلى إغواء الأرواح المؤذية. لذا، قررت البحث عن سورّو عند النهر حيث تذهب غالباً للحديث مع طفلها الميت.

توهجّ النهر تحت الشمس الراحلة ببطء أشبه بعروس متردّدة في مغادرة احتفال الزواج. لا وجود لسورّو في أي مكان، لكن لينا التقطت رائحة النار الطيبة، وتبعتها. سارت بحذر صوب رائحة الدخان، وسرعان ما سمعت أصواتاً عدة، منخفضة بحذر وتعمُّد. زحفت حوالى مئة ياردة في اتجاه الصوت، ورأت وجوهاً تضيئها موقدة صغيرة محفورة عميقاً في الأرض. خيّم صبي وبالغون عديدون على حشيشة البتول تحت عليقتي صعرور برّي. أحد الرجلين نائم، والآخر يبري خشبة. بدت ثلاث نساء، اثنتان منهن أوروبيتان، كأنهن يُزلن آثار الطعام، وقشر الجوز، وقنّابات الذرة، ويُعدن توضيب حاجات أخرى. إنهم غير مسلحين، وربما مسالمون، فكّرت لينا وهي تقترب أكثر. ما إن تركت نفسها تبدو للعيان حتى تهافتوا على الوقوف، جميعم، ما عدا الرجل النائم. تعرّفت إليهم لينا من العربة التي صعدت فلورنس على متنها. انقبض قلبها. ما الذي حصل؟

«مساء الخير»، قال الرجل.

«مساء الخير»، أجابت لينا.

سأل: «أهذه أرضك يا سيدتي؟».

«لا، لكن يُرحَّب بكم هنا».

«حسناً، شكراً. لن نتأخر». استرخى، وكذلك فعل الآخرون.

«أذكُركم»، قالت لينا. «من العربة، إلى هاركيل».

عمّ صمت طويل وهم يفكّرون في جواب.

تابعت لينا «كانت معكم خادمة. أنا وضعتها على متنها».

«نعم، كانت»، قال الرجل.

«ماذا حلّ بها؟»

هزّت النساء رؤوسهن وأكتافهن. «لقد غادرت العربة»، قالت إحداهن.

وضعت لينا يدها تحت عنقها: «غادرت؟ لماذا؟».

«لا يمكن الجزم بالسبب. لقد دخلت الغابة على ما أظن».

«وحدها؟».

«عرضنا عليها الانضمام إلينا. اختارت ألا تفعل. بدت في عجلة من أمرها».

«إلى أين؟ إلى أين غادرت؟».

«مثلنا، عند الحانة».

«أدرك ذلك»، قالت لينا. لكنها لم تفعل شيئاً، بل ارتأت أنه من الأفضل عدم الإلحاح. «هل آتيكم بأي شيء؟ المزرعة قريبة».

«تقدّر لك ذلك، لكن لا، شكراً. نحن نسافر ليلاً».

ها إن الرجل النائم قد أفاق الآن، وهو ينظر بحذر إلى لينا في وقت بدا ذهن الآخر منصباً على النهر. ما إن انتهوا من جمع مؤونتهم القليلة حتى قالت واحدة من النساء الأوروبيات للآخرين:

«من الأفضل أن نكون في الأسفل. فهو لن ينتظر».

وافقوا دون أن يقولوا ذلك، وباشروا التحرك صوب النهر.

«مع السلامة»، قالت لينا.

«الوداع. باركك الله».

ثم استدار الرجل الأول: «أنت لم ترينا أبداً، أليس كذلك يا سيدتي؟».

«كلا، لم أركم أبداً».

«أنا شاكر لك كثيراً»، ولمس طرف قبعته.

سارت لينا عائدة في اتجاه المنزل، وجهدت لتفادي النظر إلى ذلك الجديد، وقد ارتاحت إلى أنه ما من شيء قد حدث لفلورنس حتى الآن، وارتعبت أكثر لفكرة أن شيئاً قد يحدث.

فللهاربين هدف واحد؛ ولفلورنس غاية أخرى. وبدلاً من أن تدخل لينا المنزل، سرحت إلى الطريق وهي تنظر في الاتجاهين، ثم رفعت رأسها لتتنبأ برائحة الطقس المقبل. الربيع لعوب، كالعادة. فمنذ خمسة أيام استمر المطر، الذي شمّت رائحة قدومه، لوقت أطول وبغزارة لم تشهدها منذ بعض الوقت. وابل من المطر ظنّت أنه عجّل في موت السيّد. ثم حل يوم تنعّم بالشمس الحارة الساطعة التي أعطت نضاراً للأشجار وصبغتها بسحابة رقيقة من الأخضر الباهت. وفاجأها الثلج الذي تبع ذلك وأفزعها، لأن فلورنس ستسافر فيه. وها إنها الآن، وقد عرفت أن فلورنس قد جدّت في سيرها، تحاول أن تعرف ما تخبئه السماء والنسمات. قررت أنه الهدوء. فالربيع آخذ في النمو ليستقر فصلاً. رجعت، وقد عاودتها الطمأنينة، إلى غرفة المريضة، حيث سمعت السيدة تغمغم. أمزيد من الإشفاق على النفس؟ لا، ليس اعتذاراً لوجهها هذه المرة. فهي الآن، للغرابة، تصلّي. لم تعرف لينا لأجل ماذا، أو لمن. شعرت بالدهشة والإرباك معاً، عرفت دوماً أن السيدة تحترم الإله المسيحي، لكنها لا تبالي بالدين، هذا إن لم تكن معادية له. فكرّت لينا ملياً في أن لهاث الموت خالقٌ أسمى، مغيّرٌ عظيم للأذهان وجامعٌ للقلوب. أي قرار يُتخذ خلال تنشقّه، عنيف بقدر لا يمكن الركون إليه. فالتعقّل في لحظات الأزمة نادر. وبعد، ماذا بالنسبة إلى فلورنس. انظروا ماذا فعلت عندما تغيّرت الأمور فجأة: اختارت سلوك طريقها الخاص حين زحف الآخرون بعيداً. فعلت ذلك على الوجه الصحيح، وبشجاعة. لكن، هل

ستتمكن من تدبير أمرها؟ وحدها؟ لديها جزمة السيّد، والرسالة، والطعام، والحاجة اليائسة إلى رؤية الحداد. لكن، هل ستعود، معه، بعده، بدونه، أم أنها لن تعود على الإطلاق؟

الليل حالك. لا نجمة في السماء، لكن القمر تحرّك فجأة. وخزُ الأبر موجع جداً، ولا مجال للراحة هنا على الإطلاق. نزلتُ وبحثت عن مكان أفضل. سررت، على ضوء القمر، لعثوري على جذع أجوف، لكنه مليء بالنمل. كسرت قضباناً وأغصاناً من شجرة شوح صغيرة، كوّمتها وانسللت تحتها. وخز الأبر أخف، ولا خطر من السقوط. الأرض رطبة وباردة. يقترب جرذ ماء الليل، يشمّني ثم يبتعد مسرعاً. أحترس من الأفاعي التي تنساب تحت الأشجار وعلى الأرض، على الرغم من أن لينا تقول إنها لا تحبّذ عضّنا أو ابتلاعنا كلّنا. تمددت ساكنة، أحاول ألا أفكّر في الماء. فكّرت بدلاً من ذلك بليلةٍ أخرى، في مكان آخر أرضه رطبة. لكنه كان صيفاً حينها، والرطوبة سببها الندى وليس الثلج. أنت تخبرني عن طريقة صنع الأشياء الحديدية، وكم أنك سعيد لعثورك السهل على خام المعدن على سطح الأرض. وعن عظمة صنع المعدن. والدك يفعل ذلك، ووالده من قبله، وهكذا دواليك على مدى آلاف السنين، بأفران مصنوعة من تلال تراب النمل الأبيض. وأنت تعلم أن الأجداد

يوافقون عندما تظهر بومتان في اللحظة ذاتها التي تلفظ فيها اسميهما بحيث تدرك أنهما تظهران نفسيهما لتباركاك. انظري، تقول، انظري كيف تفتلان رأسيهما. تقول لي إنهما توافقان عليكِ أيضاً. سألتك، إن كانتا تباركانني أيضاً. انتظري لتري. أعتقدُ أنهما فعلتا، لأنني آتية الآن. . . آتية إليك.

تقول لي إن بعض الأرواح ترعى المحاربين والصيادين، وأخرى تحرس العذارى والأمهات. وأنا لست أياً من هؤلاء. يقول الأب المحترم إن المناولة هي الرجاء الأفضل، تليها الصلاة. لا توجد مناولة في هذه النواحي، وأشعر بالخجل في مخاطبة العذراء. فجلّ ما سأطلبه لن يعجبها. أعتقد أنه ليس للسيدة رأي في هذه المسألة، فهي تتفادى الصيادين ونساء القرية اللواتي يذهبن إلى مقر العبادة. يزعجونها، كما عندما ذهبنا ثلاثتنا، أنا والسيّدة وسورّو، لبيع عجلين. أخذوا يقفزون بالحبل وراء العربة التي تقلنا. انتظرنا بينما قامت السيّدة بمفاوضات البيع. قفزت سورّو من العربة وذهبت إلى خلف موقع التاجر حيث صفعتها إحدى نساء القرية صفعات متعدّدة على وجهها وصاحت بها. لما اكتشفت السيدة ما يجري، اشتعل وجهُها ووجهُ امرأة القرية غضباً. بوّلت سورّو في الباحة دون أن تهتم بنظرات الآخرين. انتهى الجدال وقادت السيدة العربة بنا بعيداً. بعد فترة، أوقفت الحصان. استدارت صوب سورّو وصفعتها أيضاً على وجهها واصفة إياها بالحمقاء. صُدمتُ، لأن السيّدة لا تضربنا أبداً. لم تبكِ سورّو أو تردّ. أعتقد أن السيّدة قالت لها كلاماً آخر، أكثر لطفاً، لكني لم أرَ إلا كيف تبدو

عيناها. نظرتها قريبة من الطريقة التي حدّقت بها النساء إلى لينا وإليّ ونحن ننتظر عربة الأخوين ناي. لا تصيب أيٌ من النظرتين بالخوف، لكنهما تُشعِران بالأذى. إلا أنني أعلم بأن للسيدة قلباً أكثر طيبة. ففي أحد أيام الشتاء، وأنا لا أزال صغيرة، سألت لينا السيدة إذا كان في وسعها إعطائي حذاء ابنتها الميتة. إنه أسود، ولكلّ فردة منه ستة أزرار. وافقت السيّدة، لكن عندما رأتني أنتعله، جلستْ فجأة على الثلج وبكت. جاء السيّد والتقطها بذراعيه وحملها إلى المنزل.

أنا لا أبكي أبداً. لم تسقط لي دمعة حتى عندما سرقت المرأة وشاحي وحذائي وتجمّدتُ من البرد على المركب.

هذه الأفكار تُحزن قلبي، لذا أفكّر فيكَ بدلاً منها. طريقتك في الكلام عن العمل في العالم قوية وجميلة. وأعتقد أنك أنت كذلك. أنا لا أحتاج إلى الروح القدس، ولا إلى المناولة والصلاة، لأنك، أنت وحدك، حمايتي. وفي وسعك ذلك لأنك تقول إنك رجل حرّ من أمستردام الجديدة، ولطالما كنتَ حرّاً. أنت لست كويل أو سكالي، بل كالسيّد. لا أعرف ما الشعور، ولا ما يعنيه أن يكون المرء حرّاً أو غير حرّ، لكنني أملك الذاكرة. فبعدما انتهت بوابة السيّد، وذهبْتَ أنت منذ زمن بعيد، أخذت أسيرُ أحياناً بحثاً عنك، وراء المنزل الجديد، والمرتفَع، وفوق التلّة وراءهما. رأيت مساراً بين صفوف أشجار الدردار فدخلته. تحت قدميّ الحشيش والتربة. وبعد فترة انحرف المسار عن الدردار، وإلى يميني أرض تنخفض بعيداً بين الصخور،

وإلى يساري تلّة مرتفعة، مرتفعة جداً. وقد تسلّقتها كلها، عالياً فوق، أمتطي الهواء وحولي أزهار قرمزية لم أشاهد مثلها من قبل. تنتشر أوراقها في كل مكان. عطرها لطيف. مددت يدي إليها لجمع بضع أزهار. سمعت شيئاً ورائي، واستدرت لأرى وعلاً يصعد من جانب الصخور. إنه عظيم. وكبير. وقفت هناك بين جدار العطر الذي يومئ إليّ بالمجيء، وبين الوعل، وأنا أتساءل ما الذي سيريني إياه العالم أيضاً. بدا الأمر كأنني حرّة في القيام باختيار: الوعل أو جدار الأزهار. وأنا خائفة بعض الشيء من هذه الحرية. لا أريد أن أتحرر منك لأنني لا أحيا إلا بك. وعندما اخترتُ وقلت صباح الخير، قفز الوعل بعيداً.

ها أنا أفكّر الآن في أمر آخر. حيوان آخر يحدد الخيارات. السيّد يستحم في الحوض في شهر أيار/مايو من كل سنة. نسكبُ دلواً تلو الدلو من الماء الساخن في حوض الاستحمام، ونجمع حشيشة البتول لرشّها فيه. جلس هنيهة. نتأت ركبتاه، واستوى شعره وابتلّ عند الأطراف. جاءت السيدة بعد قليل ومعها لوح من الصابون، ومن ثم مكنسة قصيرة. وقفَ بعدما أصبح زهريّاً نتيجة الفرك. لفّتْهُ بقماشة لتنشفه. ودخلت بعده وتنضّحت في الماء. لم يفركها. دخل المنزل ليرتدي ثيابه. تحرّك أيل أميركي بين الأشجار عند حافة الفسحة. رأيناه جميعنا، السيدة، لينا، وأنا. وقف وحده يتطلّع. كتفت السيدة معصميها فوق نهديها. عيناها كبيرتان وتحدّقان. صاحت لينا ورمت بحجر. استدار الأيل ببطء وسار مبتعداً، أشبه بالزعيم. وعلى الرغم من ذلك ترتجف السيّدة كما لو أن أمراً مشيناً قد حلّ. وأنا أفكّر

وحسب كم تبدو صغيرة. إنه مجرّد أيل لا همّ له بها، أو بأي كان. لم تصرخ السيّدة ولم تستمر في تنضّحها. فهي لن تغامر في الاختيار. خرج السيّد. وقفت وهرعت إليه. بشرتها العارية مليئة بحشيشة البتول. نظرنا، أنا ولينا، إلى بعضنا البعض. سألتُ عن الذي تخافه، فقالت لينا: لا شيء. ولماذا تهرب إذاً إلى السيّد؟ «لأنها تستطيع»، أجابت لينا. هبط فجأة من السماء رفّ من السنونو واستقر على الأشجار. بدا الكثير من الأشجار كأنه يُنبت العصافير وليس الأوراق أبداً. أشارت لينا وقالت: نحن لا نكوّن العالم أبداً. العالم هو الذي يكوّننا. رحلت السنونوات فجأة، بصمت. أنا لا أفهم لينا. فأنتَ مُكوّني وعالمي أيضاً. هذا أمر مقضي، ولا حاجة إلى الاختيار.

كم سيستغرق الأمر؟ هل تضيع؟ هل يكون هناك؟ هل يأتي؟ أيغتصبها متسكّع ما؟ احتاجت إلى حذاء... إلى حذاء مناسب لإبدال الأسمال التي تغطي قدميها، ولم تتفوّه بكلمة إلا عندما صنعت لها لينا واحداً.

تداخلت أفكار ريبيكا ببعضها البعض، خالطةً بين الأحداث والأوقات، وليس الناس. الحاجة إلى الابتلاع، وألم القيام بذلك، دون أن تتوقف الرغبة الشديدة التي لا تُطاق في سلخ جلدها عن العظام تحته، إلا عندما تفقد الوعي، وليس حينما تنام، لأن الأمر، في الأحلام، يصبح تماماً كاليقظة.

«جلست بين غرباء لمدة ستة أسابيع للوصول إلى هذه الأرض».

أخبرت لينا بهذا مراراً وتكراراً. فهي هي الوحيدة الباقية التي تثق بتفهّمها وتقدّر حكمها على الأمور. وحتى الآن، في زرقة الليل الربيعي القاتمة، وبقدر من النوم أقلّ من سيدتها، تأخذ لينا في الهمس وفي هزّ عصا ذات ريش حول السرير.

«بين غرباء»، قالت ريبيكا. «ما من طريقة أخرى، محشورة كسمك المورة بين طبقات السفينة».

ركّزت عينيها على لينا التي وضعت عصاها جانباً وقد ركعت الآن إلى جانب السرير.

«أعرفك»، قالت ريبيكا. اعتقدتْ أنها تبتسم على الرغم من أنها غير متأكدة من ذلك. تحوم أحياناً وجوهٌ مألوفة أخرى، ثم تختفي: ابنتها؛ البحّار الذي ساعد في حمل صناديقها وشدّ أربطتها؛ رجل على المشنقة. كلا. هذا الوجه حقيقي. تعرّفت إلى العينين الدعجاوين القلقتين، والبشرة الصهباء. كيف لا تعرف صديقتها الوحيدة؟ وقالت، لتؤكّد لنفسها لحظة الصفاء تلك، «لينا، تتذكرين، أليس كذلك، كان لنا موقد. والطقس بارد... بارد جداً. وإنني، كما تعرفين، اعتقدتُ أنها خرساء صمّاء. الدم لزج. لا يزول أبداً مهما...». كان صوتها مركّزاً ومكتوماً كما لو أنها تُفشي بسرّ، ثم حلّ الصمت وهي تقع في مكان ما بين الحمّى والذكرى.

لا يوجد في العالم ما هيّأها لحياة من الماء، وعلى الماء، ومتعلّقة بالماء؛ يسقمها وتحتاج إليه يائسة. فتنها منظره وأضجرها، خصوصاً عند منتصف النهار حيث يُسمح للنساء بساعة إضافية على جسر المركب. تحدّثت عندها إلى البحر: «ابقَ هادئاً، لا تقذف بي. لا. تحرّك، تحرّك، تحرّك، أثرني. ثق بي، سأحافظ على أسرارك: رائحتك أشبه برائحة دم الطمث الجديد.

إنك تملك الكوكب، وما الأرض إلا رأي مُستَدرك لتسليتك؛ العالم من تحتك مقبرة وجنّة معاً».

صُعقت ريبيكا، فور رسوّها، لحظّها الجيّد المُطبق بحصولها على زوج. علمت، وقد أصبحت في السادسة عشرة، أن والدها سيتخلّص منها لأي من يحجز لها سفرتها ويريحه من إطعامها. وهو، لكونه بحاراً، يعلم بحقيقة كل أنواع الأخبار من زملائه. وعندما نقل أحد أفراد الطاقم طلب أحد المعاونين البحريين البحث عن زوجة صحيحة الجسم، عفيفة، على استعداد للسفر إلى الخارج، سارع إلى عرض ابنته الكبرى: تلك العنيدة، التي تطرح الكثير، الكثير من الأسئلة، وصاحبة اللسان المتمرّد والسليط. عارضت والدة ريبيكا «الصفقة». أسمتها كذلك لأن العريس المُحتمَل شدّد على «تسديد» ثمن الثياب والمصاريف وبعض المؤن. لم ترفض حباً بابنتها، أو لحاجتها إليها، بل لأن الزوج العتيد وثني يعيش وسط المتوحشين. فالدين، كما اختبرته ريبيكا من والدتها، شعلة تتغذّى على حقد عجيب. عامل والداها بعضهما البعض وعاملا أولادهما بلا مبالاة جامدة، واحتفظا بنارهما للمسائل الدينية. فأي حفنة من سخاء لغريب تهدد بإطفاء اللظى. كان مفهوم ريبيكا لله ضعيفاً، ولم توقن إلا بأنه نوع كبير من أنواع الملوك، إلا أنها سكّنت من عار الانقطاع القاصر عن الحاجة بافتراضها أنه لا يمكنه أن يكون أعظم أو أفضل من مخيّلة المؤمن. فالمؤمن السطحي يفضّل إلهاً سطحياً. والوَجِل يستمتع بإله جامح منتقم. حذّرتها والدتها، برغم شدّة توق والدها، من أن المتوحشين أو المُعتزِلين سيذبحونها فور نزولها

إلى البر. لذلك، عندما وجدت ريبيكا أن لينا موجودة هناك أصلاً تنتظر خارج الكوخ المؤلف من غرفة واحدة والذي بناه زوجها الجديد لهما، أقفلت الباب ليلاً. لم تسمح للفتاة ذات الشعر الأسود الحالك والبشرة النابية بالنوم في أي مكان قريب. فهي في الرابعة عشرة تقريباً، ووجهها خالٍ من أي تعبير، وقد استغرق بناء الثقة بينهما وقتاً. ربما لأن كلتيهما وحدهما دون عائلة، أو ربما لأن على كلتيهما إرضاء رجل واحد، أو ربما لأنهما تجهلان كيفية إدارة مزرعة، أخذت كل واحدة منهما ترى في الأخرى رفيقة لها. أصبحتا، على أي حال، ثنائياً نتيجة التحالف الصامت الناتج عن المشاركة في المهام. ثم عندما وُلد أول طفل، تعاملت معه لينا بحنان، وبقدر كبير من المعرفة، خجلت معها ريبيكا من مخاوفها الأولى، وادعت أنها لم تراودها أبداً. وها إنها الآن مستلقية في سرير، يداها مكتّفتان وموثوقتان لمنعها من تشويه نفسها، وشفتاها متراجعتان عن أسنانها، وقد سلّمت مصيرها إلى آخرين وأضحت فريسة لمَشاهد الاختلالات الماضية. عملية الشنق الأولى التي شاهدتها في الساحة وسط حشد فرح، كانت ربما في الثانية، وكانت وجوه الموت تفزعها لولا أن الحشد سخر واستمتع لهذا القدر بها. حضرت، مع بقية عائلتها ومعظم الجيران، عملية بقر للبطون وتقطيع للأجسام إلى أربعة أقسام. وعلى الرغم من أنها كانت أصغر من أن تتذكر، فإن سنوات من قيام أهلها بإعادة إخبار الأمر ووصفه، أعطت حياة دائمة لكوابيسها. لم تعرف، حينها أو الآن، ماذا يعني أن يكون المرء من أتباع المملكة الخامسة،

لكن من الواضح في أسرتها أن الإعدام احتفال مثير كموكب استعراضي للملك.

شاعت الشجارات، والطعن بالسكاكين، وعمليات الخطف كثيراً في المدينة، إلى حد بدت معه التحذيرات بالذبح في عالم جديد لم تسبق لها رؤيته، أشبه بالتهديدات بطقس سيئ. وفي السنة ذاتها التي نزلت فيها من السفينة، كانت حرب طاحنة بين المستوطنين والسكان الأصليين، على بعد نحو مئتي ميل، قد وضعت أوزارها قبل أن تسمع بها. فما سمعته عن مناوشات متقطعة لرجال في مواجهة رجال، وسهام في مواجهة البارود، ونار في مواجهة الفأس، لم يضاهِ ما شاهدته من دم مسفوك منذ طفولتها. كومة الأحشاء المتوثّبة، التي لا تزال تدب فيها الحياة، تُرفع أمام عينيْ المجرم وتُرمى في نهر التيمز؛ الأصابع المرتجفة لجذع مفقود؛ شعر ملتهب لامرأة مدانة بإحداث الفوضى، يبهت بالمقارنة مع ذلك الموت من جراء تحطّم السفينة أو مع ذلك الفأس. وهي لا تدري ما الذي سبق لعائلات المستوطنين الآخرين أن عرفته عن نظام قطع الأطراف، لكنها لم تشاركها في هولها، بعد ثلاثة أشهر على الحادثة، عندما جاء الخبر عن معركة حامية ما، أو عن عملية خطف ما، أو عن فشل سلام ما. بدت المشاجرات بين القبائل المحلية، أو المسلّحين المنتشرين في أجزاء من المنطقة، خلفية بعيدة قابلة للضبط في أرض بمثل هذه المساحة وهذا الأريج. هدهدها غياب المدينة، ونتانة ظهر السفينة، في نوع من السُّكر استلزمت الإفاقة منه سنوات، ومن اعتبار الهواء اللطيف أمراً مقضياً. أصبح المطر

ذاته أمراً حديث العهد: قطرات ماء نظيفة، لا سخم فيها، تنزل من السماء. شبكت يديها تحت ذقنها وهي تحدّق في أشجار أكثر ارتفاعاً من الكاتدرائيات، بدت لها كأنها خشب تدفئة وافر إلى درجة جعلتها تضحك، ثم تنتحب على أشقائها والأولاد الذين يتجمدون برداً في المدينة التي تركتها وراءها. لم يسبق لها أن شاهدت طيوراً كهذه، أو تذوّقت ماءً عذباً يتدفق من فوق حجارة بيضاء مرئية. ثمّة مغامرة في تعلّم طهو طرائد لم يسبق لها أن سمعت بها، وفي تذوّق لحم الإوز المحمّر. نعم، توجد هنا بالطبع عواصف فظيعة يتكوّم فيها الثلج إلى أعلى من عتبة النافذة. وحشرات الصيف تتفشى مع ألحان أعلى صوتاً من نغمة أجراس برج الكنيسة. إلا أنه لا يزال ينفرها التفكير في ما قد تصبح حياتها لو أنها بقيت مسحوقة في تلك الشوارع التي تفوح منها الروائح الكريهة، يبصق عليها الأشراف والمومسات، مطأطأة الرأس، مطأطأة الرأس، مطأطأة الرأس. فهي هنا مسؤولة تجاه زوجها وحده، وتحضر من باب الاحترام (إذا سمح الوقت والطقس بذلك) إلى دار العبادة الوحيدة في المنطقة. معمدانيون ليسوا عبّاداً للشياطين، كما يسمّيهم أهلها، وكما يفعل جميع الانفصاليين، بل أناس لطفاء، أسخياء على الرغم من وجهات نظرهم المُربكة. وجهات نظر أدت إلى تعرّضهم وتعرّض الصاحبيين للضرب الدامي في قلب معابدهم في الديار. لا تملك ريبيكا عدائية متأصلة. فحتى الملك عفا عن العشرات منهم وهم في الطريق إلى المشانق. وهي لا تزال تتذكّر خيبة أمل أهلها عندما أُلغيت الاحتفالات، وغضبهم على ملك يتم

التأثير فيه بسهولة، وثنيه عن عزمه. فالانزعاج الذي أصيبت به في عليّة ملأى بالجدال الدائم، وبنوبات من الحسد الحانق والاستنكار الواجم لكل من ليس مثلهم، جعلها تنتظر بفارغ صبر نوعاً من الهرب. أي نوع!

جرت عملية إنقاذ مبكرة وحصلت أمور أفضل في المدرسة التابعة للكنيسة، حيث اختيرت واحدة من أربع سيتم تدريبهن على الخدمة المنزلية. لكن تبيّن أن المكان الوحيد الذي وافق على أخذها، تطلّب أن تهرب من السيّد وتختبئ خلف الأبواب. استمرّت أربعة أيام، لم يعرض عليها أحد بعدها مكاناً آخر. ثم جاء الإنقاذ الأكبر عندما تبلّغ والدها عن رجل يبحث عن امرأة قوية أكثر من بحثه عن مهر. لم تصدق أياً من التحذير بالذبح الفوري أو الوعد بنعيم الزواج. إلا أن آفاقها، بدون مال أو الميل إلى بيع البضائع من بيت إلى بيت، أو فتح دكان صغير أو تعلّم مهنة في مقابل الطعام والمأوى، حيث يُحظر عليها حتى دير الراهبات المخصّص للطبقة العليا، انحصرت في أن تصبح خادمة، أو مومساً، أو زوجة. كان خيارها الأخير بالزواج يبدو الأكثر أماناً على الرغم من القصص الرهيبة التي تُروى عن كل من هذه المهن. فهي قد تُرزق بأطفال، وتضمن بالتالي الحصول على بعض العطف. ويتعلّق الأمر، كما في أي مستقبل متوفّر لها، بصفات الرجل المسؤول. شرعت تخفف من وطأة ما هي مقدمة عليه، فللزواج بشخص مجهول في أرض بعيدة، فضائل متميّزة: الانفصال عن أمّ نجت بالكاد من بركة الغطس؛ وعن أشقاء ذكور يعملون مع والدها ليل نهار وتعلموا منه موقفه النابذ

شقيقةً ساعدت في تربيتهم. لكنه، فوق هذا كله، هروب من النظرات المشتهية والأيدي الجلفة للرجال، السكارى أو الصاحين، الذين قد تمرّ بهم. كيف يمكن للخطر، مهما اشتدّ، أن يكون أشد سوءاً؟

زارت في البداية، عندما استقرت في أرض جاكوب، الكنيسة المحلية التي تقع على بعد نحو سبعة أميال، والتقت قلّة من القرويين المريبين، نحوا بأنفسهم عن طائفة أكبر من أجل ممارسة شكل أكثر طهارة من أشكال ديانتهم الانفصالية، وأكثر صدقاً وقبولاً من الله. تعمّدت، وهي بينهم، أن تكون ناعمة الكلام. وفي دار عبادتهم بدت متآلفة، وعندما شرحوا معتقداتهم لم تقلب عينيها. لم تبتعد ريبيكا عنهم إلا بعدما رفضوا تعميد مولودتها الأولى، ابنتها البدينة. فلا يوجد عذر، مهما كان إيمانها ضعيفاً، لعدم حماية روح طفلة من الهلاك الأبدي.

أخذت، وهي في صحبة لينا، تسمح أكثر فأكثر لبؤسها بالبروز.

«عاقَبْتها، يا لينا، على تمزيق ثوبها، ولم أدرك ما جرى بعدها إلا وهي ممدّدة على الثلج، وقد انكسر رأسها الصغير كالبيضة».

أحرجتها الإشارة في الصلاة إلى حزنها الخاص؛ أن تكون إلا شجاعة في أساها؛ أن تدع الله يعلم أنها أقل من شاكرة على رعايته. لكنها ولدت أربعة أطفال أصحّاء، وراقبت ثلاثة

يستسلمون في عمر مختلف لهذا المرض أو ذاك، وراقبت من ثم باتريسيان، مولودتها الأولى، التي بلغت سن الخامسة ووفرت سعادة لم يمكن لريبيكا أن تصدقها، ترقد ليومين بين ذراعيها قبل أن تموت متأثرة بكسر في أعلى الرأس. ولتدفنها من ثم مرتين: مرّة في تابوت محمي بالفرو، لأنه لم يمكن للأرض القبول بالصندوق الصغير الذي بناه جاكوب، وهكذا اضطرا إلى تركها هناك لتتجمّد فيه؛ والثانية في أواخر الربيع عندما أمكنهما وضعها بين إخوتها بحضور المعمدانيين. كانت ضعيفة، متبّرة الوجه، لم تحظَ حتى بيوم كامل لندب جاكوب، لأن حزنها لا يزال طازجاً، أشبه بحشيش العلف زمن المجاعة. ما يجب أن تركّز عليه هو موتها هي. أمكنها سماع وقع حوافره على السطح، وأمكنها رؤية وجهه المغطى وهو على متن الحصان. لكن في كل مرة يسكنها كربها الفوري الشديد، تغادر أفكارها جاكوب وتسافر إلى شعر باتريسيان المتلبّد، وإلى لوح الصابون القاسي، الداكن الذي استخدمته لتنظيفه، وإلى التشطيف المتكرّر لتحرير كل خصلة ذات لون عسلي - بنّي من الدم الآخذ في الاسوداد، مثل ذهنها. لم تنظر ريبيكا أبداً إلى التابوت المنتظر تحت الحجارة حتى يذوب الثلج. لكن، عندما أصبحت الأرض لينة، وبات جاكوب قادراً أن يمسك بالرفش بإحكام وإنزال النعش، جلست على الأرض مستندةً إلى مرفقيها، غافلةً عن البلل، وتفرّست في كل كتلة تراب وضمّة حشيش تسقط. بقيت هناك النهار كله وطوال الليل. لم يتمكّن أحد، لا جاكوب، ولا سورّو أو لينا، من جعلها تنهض. ولم يستطع ذلك القسيسُ

أيضاً، لأن معتقداته ومعتقدات أتباعه هي التي حرمت أولادها من الفداء. عندما لمسوها زجرت، ورمت بالوشاح عن كتفيها. وعند ذاك تركوها وشأنها وهم يهزّون برؤوسهم ويتمتمون صلوات للغفران لها. جاءت لينا عند الفجر، تحت انهمار خفيف للثلج، ووضعت جواهر وطعاماً على القبر، وأوراقاً عَطِرة، وهي تقول لها إن الصبية وباتريسيان أضحوا نجوماً الآن، أو شيئاً على القدر ذاته من الروعة: طيوراً صفراء وخضراء، ثعالب لعوبة، أو غيوماً ذات لون وردي تتجمع عند طرف السماء. صحيح أنها سخافات وثنية، لكنها أكثر إرضاءً من صلوات تقول كلماتها «أنا أقبل وسوف ألقاك في يوم الدينونة»، وقد تعلّمتها ريبكا وسمعت الرعية المعمدانية تكرّرها. وحدث مرّة، في أحد أيام الصيف، أن جلست أمام المنزل تخيط وتتكلّم تجديفاً في حين كانت لينا تحرّك كتاناً يغلي في قدر إلى جانبها.

- لا أعتقد أن الله يعرف من نحن. أظن أنه لو عرفنا لأحبّنا، لكنني لا أعتقد أنه يعرف أي أمر في شأننا.

- لكنه هو الذي كوّننا، يا سيدة. أليس كذلك؟

- لقد فعل، لكنه كوّن ذنب الطاووس أيضاً. ولا بد من أن ذلك كان أكثر صعوبة.

- آه، لكننا، يا سيدة، نغني ونتحدث. والطواويس لا.

- نحتاج إلى ذلك، والطواويس لا. وماذا لدينا غير ذلك؟

- الأفكار. الأيدي لنعمل بها.

- ذلك كلّه حسن. لكن هذا عملنا. وليس عمل الله. إنه يفعل شيئاً آخر في العالم. نحن لسنا في باله.

- ما الذي يفعله إذاً، إذا لم يكن يرعانا؟

- الله أعلم.

وانفجرتا بالضحك، مثل فتاتين صغيرتين تختبئان وراء الاسطبل وتتمتعان بخطر حديثهما. لم تتمكن من أن تقرر هل حادثة باتريسيان من جرّاء حافر مشقوق، تشكل تبكيتاً أم برهاناً على عدم معرفة حسن الشيء من رداءته حتى تقوم بتجربته.

وها إنها الآن في سريرها، وقد لُفّت يداها الدؤوبتان على العمل بأقمطة لئلا تدمي نفسها. لا يمكنها القول هل هي تتكلم بصوت مرتفع أم تفكّر فحسب.

«تغوّطتُ في حوض خشبي... جاهلات».

أحياناً يحطن بسريرها، هؤلاء الغريبات اللواتي لسن بغريبات، وقد أصبحن هذا النوع من العائلة التي تنشئها سفرة البحر. افترضت أن ذلك ناتج عن الهلوسة أو عن دواء لينا. لكنهن جئن وعرضن عليها النصح، وثرثرن، وضحكن أو اكتفين بالتحديق فيها مشفقات.

توجد سبع نساء أخريات خُصص لهن مكان منخفض الأجرة على متن «أنجلوس». انتظرن للصعود، وظهورهن إلى الريح التي تقطع من البحر إلى المرفأ، وهن يرتجفن بين الصناديق، والمأمورين، وركاب الجسر الأعلى، والعربات، والأحصنة،

والحراس، والحقائب، والأولاد الباكين. وأخيراً، عندما نودي على راكبات الجسر الأسفل للصعود، وتم تسجيل أسمائهن، والمقاطعة التي جئن منها، ووظائفهن، قالت أربع أو خمس نساء إنهن خادمات. وسريعاً ما عرفت ريبيكا عكس ذلك، ما إن فُصلن عن الرجال ونساء الطبقة الأرفع، وجيء بهن إلى مساحة مظلمة في الأسفل على مقربة من حظيرة الحيوانات. تسرّب النور وحالة الطقس من الكوّة؛ استوى حوض خشبي للنفايات إلى جانب برميل من عصير التفاح؛ سلّة وحبل يُمكن إنزال الطعام بواسطتهما ومن ثم سحب السلّة. واضطرت كل من هي أطول من خمس أقدام، إلى الاحديداب وإحناء رأسها للتحرك في المكان. الذبُّ كان أسهل في السابق، وقد قسّمن فسحاتهن الخاصة على طريقة متسكّعي الشوارع. وشى نسق الأمتعة، والثياب، والحديث، والتصرف بوضوح، عمّا كن عليه قبل وقت طويل على اعترافاتهن. إحداهن، آن، أبعدتها عائلتها بعدما جلبت لها العار. وأخريان، جوديث وليديا، مومستان أمرتا بالاختيار بين السجن أو المنفى. ترافق ليديا ابنتها، باتي، وهي سارقة في العاشرة من العمر. إليزابيث ابنة وكيل مهم في الشركة، أو هكذا تقول. وأخرى، أبيغايل، نُقلت سريعاً إلى حجرة القبطان، وهناك أيضاً دوروثيا، وهي نشّالةٌ، الحكمُ الصادر بحقها شبيه بالحكم الصادر على المومستين. وحدها ريبيكا، التي دُفع ثمن تذكرتها مسبقاً، ستتزوج. سيلاقي الباقيات أقارب أو أصحاب حرفة سيدفعون ثمن رحلتهن، ما عدا النشّالة والمومستين اللواتي ستتحمل مصاريفهن وإعالتهن سنوات

وسنوات من العمل غير المدفوع الأجر. وحدها ريبيكا ليست واحدةً من هؤلاء. ولم تعرف إلا لاحقاً، وهي متكوّرة بين الجسرين وجدران مصنوعة من الصناديق والعلب والأغطية المتدلية من المضاجع المعلّقة، المزيد عنهن. تمتلك السارقة المتدرّبة، الفتاة التي هي في طور ما قبل البلوغ، صوتاً غنائياً ملائكياً. وُلدت «ابنة» الوكيل في فرنسا. أما المومستان، فقد طُردتا عند بلوغهما الرابعة عشرة من منزل ذويهما بسبب سلوكهما الداعر. والنشّالة نسيبة نشالة أخرى علّمتها وشحذت مهاراتها. أدخلن معاً البهجة إلى الرحلة، وجعلنها أقل بشاعةً مما ستكون عليه بالتأكيد لولاهن. ظرفهن الخليق بالحانات، ودريتهن الممزوجة بتوقّعاتهن المنخفضة من الآخرين، ومستوياتهن العالية من حسن الظن بالنفس، وضحكاتهن الحاضرة، سلّت ريبيكا وشجعتها، ولو أنها خشيت تعرّضها للأذى، كونها أنثى تسافر وحيدة إلى بلد خارجي للزواج بغريب، فإن هؤلاء النسوة صحّحن توجّساتها. وإذا ما رقّ قلبها لدى تذكّرها تكهّنات والدتها، فإن رفقة هؤلاء المنفيات، النساء اللواتي رُمي بهن بعيداً، قد وضعت حداً لذلك. وكانت دوروثيا، التي أصبحت أكثر وداً معها، مسعفةً في شكل خاص. قمن، بتنهدات مبالغ فيها وشتائم لطيفة، بترتيب ممتلكاتهن واستملاك مساحة ليست أكبر من عتبة باب. ولما اعترفت ريبيكا، تحت وابل من الاستفسارات المباشرة، بأنها ستتزوج للمرة الأولى، ضحكت دوروثيا وأعلنت عما اكتشفته لكل من يسمعها. «عذراء! هل تسمعين ذلك يا جودي؟ فَرْجٌ غير ناضج بيننا».

«حسناً. لدينا اثنتان على متن السفينة إذاً. باتي هي الأخرى». غمزت جوديث وابتسمت للفتاة الصغيرة. «لا تبيعي ذلك بالرخص».

«إنها في العاشرة!»، قالت ليديا. «أي نوع من الأمهات تعتبرينني؟».

«سنجيب على ذلك بعد سنتين».

ارتفع صوت الضحك بين الثلاث، إلى أن قالت آن، «يكفي، رجاءً! أمتعض من البذاءة».

«الكلمات البذيئة وليس السلوك البذيء؟»، سألت جوديث.

«ذلك أيضاً»، أجابت.

لقد استقررن الآن وتشوّقن إلى امتحان جاراتهن. نزعت دوروثيا فردة حذائها وحرّكت إبهام رِجلها من خلال الثقب الموجود في جوربها. ثم طوت، وهي تشدّ بحذر، الصوف تحت أصابعها ونثرته. أعادت فردة الحذاء، وابتسمت لآن.

«هل سلوكك هو سبب قيام أهلك بإرسالك بحراً؟»، جحظت عينا دوروثيا، ورفرفت بأهدابهما لآن متصنّعة البراءة.

«أنا ذاهبة لزيارة عمي وعمتي». ولو كان النور الآتي من الكوّة المفتوحة من فوق أشد قوة، لأمكنهن رؤية اللون القرمزي على خديها.

«وتحملين لهما معك هدية، على ما أقدّر»، قهقهت ليديا.

«واع، واع، واع، واع»، هدهدت دوروثيا بذراعيها.

«بقرا!». صاحت آن زاجرة.

ارتفع المزيد من الضحك إلى درجة إزعاج الحيوانات وراء الألواح الخشبية التي تفصل النساء عن الأنعام. فوقف أحد أفراد الطاقم من فوقهن، ربما انصياعاً لأوامر صدرت إليه، وأغلق الكوّة.

«لقيط!»، صاحت إحداهن وقد غرقن في الظلام. دبّت دوروثيا وليديا في الجوار وتمكّنتا من العثور على المصباح الوحيد المتوفّر. وما إن أضيء حتى سحبتهن كتلة النور إلى قربها.

«أين الآنسة أبيغايل؟»، سألت باتي، وقد راق لها الجانب الذي أطلّ على المرفأ، قبل ساعات على إبحارهن.

«اختارها القبطان»، قالت الأم.

«يا للبغي المحظوظة»، تمتمت دوروثيا.

«احبسي لسانك. فأنتِ لم تشاهديه».

«كلا، لكن في وسعي أن أخمّن ماذا على طاولته»، تنهّدت دوروثيا. «صعرور، نبيذ، لحم خروف، معجّنات...».

«أيتها المُلوّعة. كفّي عن ذلك. ربما ترسل إلينا الفاسقة بعضه. لن يدعها تبتعد عن ناظريه. الخنزير...».

«حليب يأتي من الضرع مباشرة، لا يعلوه وسخ أو ذباب، زبدة مختومة...».

«كفّي عن ذلك!».

«لدي بعض من الجبن»، قالت ريبيكا. سعلت وقد دُهشت لأن صوتها بدا أشبه بصوت طفلة... «والبسكويت».

التفتن إليها، وطنّ صوت: «آه، رائع. دعونا نُعدّ الشاي».

زَفَر مصباح الزيت مهدداً بإلقائهن من جديد في الظلمة التي لا يمكن إلا للمسافرين على درجة الأجرة المتخفضة، أن يعرفوها. كل شيء يُحتمل - التأرجح على الجانبين؛ محاولة عدم التقيّؤ قبل بلوغ الحوض الخشبي؛ الركوع على الركبتين في وضع أسلم من الوقوف على القدمين - إذا وُجد ولو بصيص من نور. هرعت النسوة صوب ريبيكا. وفجأة، شرعن بدون استعجال، في تقليد ما اعتقدن أنها آداب الملكات. مدّت جوديث شالها على طبق أحد الصناديق. أخرجت إليزابيث من صندوقها غلاّية ومجموعة من الملاعق. تنوّعت الأكواب: معدن، تنك، فخار. سخّنت ليديا الماء في الغلاية فوق المصباح، حامية اللهب براحة يدها. لم يفاجئهن أن أياً منهن لم تحمل معها ولو قليلاً من الشاي، إلا أن كلاً من جوديث ودوروثيا كان لديها روم مخبأ في أكياسهما. صبّتاه، بحرص رئيس خدم، في الماء الفاتر. وضعت ريبيكا الجبن وسط الشال وأحاطته بالبسكويت. تلت آن صلاة الشكر. ارتشفن، وهن يتنفّسن بهدوء، المشروب الكحولي ومضغن بصوت مسموع البسكويت البائت، وهن يزحن القشرة عن برقّة. جلست باتي بين ركبتيْ والدتها، وليديا تربّت على كوبها بيد، وتمسّد شعر ابنتها

بالأخرى. فكّرت كيف أن كل واحدة منهن رفعت خنصرها، ووجّهته إلى الخارج. وتذكّرت كيف أن لطم المحيط بالَغَ في الصمت. ربما يُخفين، مثلها، سبب هروبهن وما قد ينتظرهن. بائسات كالمكان الذي قبعن فيه، وعلى الرغم من ذلك، فهو خاوٍ لا وجود فيه لماضٍ يُلازم ولا مستقبل يومئ. نساء من رجال ولأجلهم، وهنّ لسن في هذه اللحظات القليلة أياً من الاثنين. وفي النهاية أسلم المصباح الروح، ولفّهن بالظلمة، فلم يتحرّكن، لوقت طويل، غافلات عن وقع الأقدام فوقهن والخوار وراءهن. فقدن القدرة على رؤية السماء، فأصبح الوقت بالنسبة إليهن هو البحر الجاري، غير المحدّد، والأبدي من دون شأن.

لم يدّعين، عند بلوغهن البرّ، أنهن سيلتقين من جديد. يعرفن أنهن لن يفعلن ذلك أبداً. لذا، كان رحيلهن سريعاً، وغير عاطفي، في حين كانت كل واحدة منهن تجمع حوائجها وتتأمل الحشد في تبصّر لمستقبلها. صحّ الأمر؛ ولم يلتقين أبداً من جديد، في ما عدا زيارات الفراش التي استحضرتها ريبيكا.

كان أطول قامة مما تخيّلته. فجميع الرجال الذين عرفتهم قصيرو القامة؛ لكنهم كانوا شديدي المراس. حمل السيّد فارك (استغرقت وقتاً قبل أن تتمكن من قول جاكوب) صندوقيْها كليهما بعدما لمس وجهها وابتسم.

«رفعتَ قبعتك وابتسمتَ. ابتسمتَ وابتسمتَ». ظنّت ريبيكا أنها تردّ على ابتسامة زوجها الجديد، لكن بالكاد تحرّكت

شفتاها الظمآنتان وهي تدخل مشهد لقائهما الأول. راودها انطباع، عندها، أن هذا كل ما تعلّقت به حياته. بدا الارتياح واضحاً عليه والرضا بالالتقاء بها أخيراً. تبعته، وهي تشعر بمرونة الأرض المُعوّقة بعد أسابيع في البحر، فتعثّرت على الممشى الخشبي ومزّقت حاشية فستانها. لم يلتفت إلى الوراء، فأمسكت بتنورتها بجمع كفها، وتشبثت بجهاز فراشها تحت ذراعها وهرولت إلى الأمام، إلى العربة، رافضة يده الممدودة لمساعدتها على الركوب. إنه اتفاق ناجز. فهو لن يدلّلها. وهي لن تقبل إذا فعل. معادلة تامة للعمل الذي سيأتي.

كُتب على اللافتة إلى جانب باب المقهى «إنجاز الزيجات في الداخل»، وتحتها، بأحرف صغيرة، آية تجمع بين التحذير والتسويق: «والشهوة متى حبلت تلد خطيئة». الكاهن متقدّم في السن وغير صاحٍ تماماً، لكنه سريع. عادا في غضون دقائق إلى العربة متشرّبين توقّعاً بحياة جديدة وافرة.

بدا خجولاً في البداية، وهكذا اعتقدت أنه لم يعش مع ثمانية أشخاص في عليّة من غرفة واحدة. لم يصبح على درجة كبيرة من التآلف، عند الفجر، مع صرخات الشغف الصغيرة الأشبه بشدو الباعة المتجولين. ليس الأمر أبداً كما وصفته دوروثيا، أو البهلوانيات التي جعلت ليديا تصرخ، وليس كوصال أهلها السريع والغاضب. بل إنها، بخلاف ذلك، شعرت بأنه يتم الطلب إليها بإلحاح أكثر مما تتم حيازتها.

دعاها «يا نجمتي الشمالية».

استقرّا على عملية طويلة من معرفة أحدهما للآخر: الاختيارات، العادات التي تبدّلت، والأخرى التي اكتُسبت؛ اختلاف بدون مزاج سيئ؛ الثقة وتلك الأحاديث الصامتة التي تستند إليها سنوات من الرفقة. لم يهتم بميول ريبيكا الدينية الضعيفة التي أغاظت والدتها. لم يبالِ، وقد قاوم هو نفسه جميع الضغوط للانضمام إلى رعيّة القرية، لكنه رضي بأن تترك لنفسها أن تقتنع إذا ارتأت ذلك. وقد أصبح رضاه جليّاً عندما اختارت ريبيكا عدم المواصلة بعد زياراتها الأولى. اعتمدا على بعضهما البعض في كل شيء، غير محتاجين إلى أحد في كفايتهما، أو أنهما اعتقدا ذلك، لأنهما سيُرزقان بأطفال بالتأكيد، وهو ما حصل. ونسيت ريبيكا في كل مرة أنجبت فيها، بعد باتريسيان، الإرضاع السابق الذي أوقف قبل وقت طويل على الفطام. نسيت الثديين اللذين لا يزالان يرشحان، أو الحلمتين اللتين تحجّرتا قبل أوانهما، والحساستين جداً على الملابس الداخلية. نسيت، أيضاً، كم يمكن أن تكون الرحلة سريعة من المهد إلى اللحد.

أضحى جاكوب، بعد وفاة أبنائه ومرور السنين، على اقتناع بأن المزرعة تكفي نفسها، لكنها لا تدر الربح. فشرع في التجارة والسفر. وكانت عودته تشكل دائماً أوقاتاً سعيدة، وبخاصة عندما تكون مليئة بالأخبار والمناظر المدهشة: الغضب الشديد والقاتل، لسكان المدن، عندما أطلق محاربو قبيلة محلية النار على قسيس وهو على صهوة حصانه فأردوه؛ رفوف متجر مكدّسة بلفائف من الحرير بألوان لم يرَ مثلها إلا في الطبيعة؛ قرصان

مُقيّد إلى لوح خشبي في طريقه إلى المشنقة وهو يلعن آسريه بلغات ثلاث؛ جزّار تم نهبه لأنه يبيع لحماً فاسداً؛ الأصوات المروّعة للجوقات الدينية في مطر الأحد. أثارت أخبار رحلاته مشاعرها، لكنها ضاعفت أيضاً من رؤيتها عالماً خارجياً فوضوياً متوعّداً، لا يمكن إلا له وحده توفير الحماية منه. وهو، عندما يجلب لها أحياناً خادمة شابة وغير مؤهّلة، يجلب معه أيضاً بعض الهدايا: سكّين أفضل للتقطيع؛ حصان لعبة لباتريسيان. مضى بعض الوقت قبل أن تلاحظ كم قلّت القصص وكثرت الهدايا وأصبحت أقل عمليّة، بل حتى غريبة: طاقم شاي فضي وُضِع جانباً على الفور؛ قصريّة من الخزف سرعان ما تشقّقت من جراء استخدامها كيفما اتفق؛ فرشاة شعر مزخرفة ومنمّقة لشعر يراه فقط في السرير. قبعة من هنا، طوق مخرّم من هناك. أربع ياردات من الحرير. ابتلعت ريبيكا أسئلتها وابتسمت. وعندما سألته أخيراً عن مصدر أمواله، أجاب باقتضاب: «ترتيبات جديدة»، وأعطاها مرآة موضوعة في إطار من الفضة. رأت بريقاً يأتي ويروح في عينيه، وهو يفرغ هذه الكنوز التي لا فائدة منها أبداً في مزرعة، فتوقّعت اليوم الذي استخدم فيه رجالاً للمساعدة على إزالة الأشجار من بقعة واسعة من الأرض عند أسفل أحد المرتفعات. إنه يبني منزلاً جديداً، بشكل وترتيب لا يناسبان مزارعاً، ولا حتى تاجراً، بل سيّداً من كبار الملاكين.

فكّرَتْ في أن ثمة أناساً صالحين، من العامة، في مكان

يكاد لا يكفي فيه هذا الادعاء، لكن له فيه قيمة عظيمة، ويمكن حتى التفاخر به.

«لا نحتاج إلى منزل آخر»، قالت له. «وبالتأكيد ليس واحداً بمثل هذا الحجم». كانت تحلق له ذقنه وقد تحدّثت عند انتهائها من ذلك.

«الحاجة ليست السبب، أيتها الزوجة».

«وما هو، بالتحديد؟». أزالت ريبيكا آخر كتلة من الرغوة عن الموسى.

«الرجل هو ما يخلّفه وراءه».

«جاكوب، الرجل هو سمعته وحسب».

«افهميني»، وأخذ الفوطة من يديها ومسح ذقنه. «سأحصل عليه».

وهكذا صار. رجال، عجلات بدواليب، حداد، خشب، خيطان مصّيص، قدور من القار، مطارق، وأحصنة رفس أحدها ابنتها على رأسها. بلغت حمّى البناء حدّاً كبيراً من الشدّة، بحيث إنها أغفلت الحمّى الحقيقية، تلك التي أرسلته إلى القبر. وما إن انهار، حتى بلغ الأمر مسامع المعمدانيين، ولم يُسمح لأي واحد من المزرعة، وسورّو بالأخص، بالتواجد بينهم. غادر العمّال مع أحصنتهم ومعداتهم. الحداد كان قد رحل منذ زمن طويل. مصنوعته الحديدية متألقة مثل بوابة تؤدي إلى الجنة. فعلت ريبيكا ما أمرها جاكوب بالقيام به: جمعت النساء

وكافحت معهن لرفعه عن السرّير وإنزاله على حرام. وهو طوال الوقت يتأفف: «هيّا، هيّا». لم يتمكّن من استجماع القوة في عضلاته لمساعدتهن، فهو قد أصبح حِمْلاً ميتاً قبل أن يموت. جذبنه عبر مطر الربيع البارد. التنانير تجرجر في الوحل. الشالات منفصلة عند بعضها البعض، والقبعات على رؤوسهن قد تبلّلت حتى فروة الرأس. حصلت مشكلة عند البوابة. اضطررن إلى وضعه في الوحل في وقت قامت فيه اثنتان بفك المفاصل، ومن ثم فتح مزلاج الباب المؤدي إلى المنزل. حاولت ريبيكا، وقد انهمر الشتاء على وجهه، أن تقيه بوجهها. استخدمت الجزء الأكثر جفافاً من قميصها الداخلي، وجفّفته بعناية حتى لا تسبب له الدمامل الوجع. دخلن البهو في النهاية، ووضعنه في مكان بعيد عن المطر الذي تطرق قطراته على النافذة. انحنت ريبيكا إلى قربه لتسأله إن كان يريد تناول بعض من شراب التفاح. حرك شفتيه، لكنه لم يُخرج منهما جواباً. تحوّلت عيناه إلى شيء ما أو أحد ما فوق كتفها، وبقيتا كذلك إلى أن أقفلتهما. جلست، هي ولينا وسورّو وفلورنس على ألواح الأرضية الخشبية. فكّرت إحداهن، أو جميعهن، في أن الأخريات يبكين، وإلا فإنها نقاط مطر على خدودهن.

شكّت ريبيكا في أنها ستصاب بالعدوى. لم يمت أي من أقارب أهلها إبان الطاعون؛ تفاخروا بأنه لم يتم رسم صليب أحمر على أبوابهم، برغم أنهم شاهدوا المئات والمئات من الكلاب المذبوحة وعربات محمّلة بالموتى تصرّ في المشاعات. بدا لها الأمر أشبه بالنكتة بعدما أبحرت إلى هذا العالم النظيف،

إنكلترا الغضّة الجديدة، وتزوجت برجل ضخم، قوي البنية، لتستلقي من ثم، في أعقاب موته، متقيّحة في ليلة ربيعية. التهاني لك أيها الشيطان. هذا ما تعوّدت النشالة أن تقوله كلما ارتفعت السفينة ورمت بأجسامهن بعجلة واختلاط.

«تجديف!»، تصيح إليزابيث.

«حقيقة!»، تجيب دوروثيا.

ها إنهن يَحُمْن الآن عند المدخل، أو يركعن إلى جانب سريرها.

«أنا ميتة بالفعل»، قالت جوديث. «ليس الأمر بهذا السوء».

«لا تقولي لها ذلك. إنه شنيع».

«لا تنصتي إليها، فهي الآن زوجة قسيس».

«أتريدين بعض الشاي؟».

«لقد تزوجت ببحار. لذا، أنا دوماً وحدي».

«إنها تضيف إلى ما يجنيه. اسأليها الآن».

«ثمة قوانين تمنع ذلك».

«بالتأكيد، لكنهم لم يضعوها لو لم يكونوا في حاجة إليها».

«اسمعي، دعيني أخبرك بما حصل معي. التقيت ذلك الرجل...».

تداخلت أصواتهن مع بعضها بعضاً، تماماً كما في السفينة.

جئن للتخفيف عنها، إلا أنهن، على غرار جميع الوجود الشبحي، غير مهتمات إلا بأنفسهن. لكن القصص التي أخبرنها، وتعليقاتهن، شغلت ريبيكا عن حيوات أناس آخرين. حسناً، فكّرت في أن تلك هي القيمة الحقيقية لمُعزّي أيّوب. استلقى وقد حطّمه الألم وهو في حالة من اليأس المعنوي. أخبروه عن أنفسهم، ولما شعر بأنه في حال أسوأ، حصل على جواب من الله يقول: من يا ترى تظنّ نفسك؟ أوتشكك فيّ؟ دعني أعطِك لمحة عمّن أنا وعمّا أعرفه. ولا بد من أن أيوب قد تاق إلى استغراقات الذهن الأنانية للأشخاص سريعي العطب والضالين على غراره. إلا أن اختلاس النظر إلى المعرفة الإلَهية أقل أهمية، في النهاية، من كسب اهتمام الله. وهو جل ما أراده أيوب بحسب استنتاج ريبيكا. ليس البرهان على وجوده، وهو لم يشك أبداً في ذلك. وليس البرهان على قدرته، فالجميع يعترفون بذلك. أراد وحسب أن يجذب ناظريه؛ أن يتم الاعتراف به ليس كصاحب قيمة أو كعديم فائدة، بل أن يلاحظه الواحد كشكل من أشكال الحياة التي يعطيها ويأخذها. ليست مساومة، بل توقد من المُعجِز ليس إلا.

لكن جاكوب رجل. والرجال لا يطيقون ما يخفى على العين. فأي شكوى يمكن لأيوب أنثى أن تجرؤ على رفعها؟ وفي حال قيامها بذلك وتلطّف وذكّرها بمدى ضعفها وجهلها، فأين الجديد في ذلك؟ فما صدّ أيوب ودفعه إلى التواضع وتجديد إخلاصه، هو رسالة كانت أيوب الأنثى لتعرفها وتسمعها في كل

دقيقة من دقائق حياتها. لا. فالعزاء الكاذب أفضل من اللاعزاء، فكّرت ريبيكا، واستمعت بانتباه إلى رفيقاتها في السفينة.

«طعنني بالسكين، والدم في كل مكان. أمسكت بخاصرتي وفكّرت، لا! لا تفقدي الوعي، يا فتاتي. اثبتي...».

ما إن تلاشت النساء، حتى عاود القمر التحديق فيها مثل صديق قلقٍ في سماء حبكتها أشبه بحبكة فستان رقص سيّدة. شخرت لينا شخيراً خفيفاً على الأرض عند قائم السرير. عند حد ما، وقبل وقت طويل على وفاة جاكوب، أصبحت المساحة الطليقة، التي هزّتها فرحاً، فراغاً. غياب مهيب وجائر. أدركت تعقيدات الوحشة: هول اللون، ودويّ الصمت، وتهديد الأشياء المألوفة الباقية ساكنة. عندما كان جاكوب بعيداً، وعندما لم تعد باتريسيان ولا لينا كافيتين. عندما أتعبتها المعمدانيات المحليات بكلام لا يمتد أبداً إلى ما هو أبعد من أسيجتهن إلا إذا توجه مباشرة إلى السماء. بدت لها هؤلاء النساء سطحيات، مقتنعات بأنهن بريئات وبالتالي طليقات؛ آمنات لأنهن تباركن بالكنيسة؛ شديدات لأنهن لا يزلن على قيد الحياة. شعب جديد أُعيد صنعه في أوعية قديمة كالزمن. وبعبارات أخرى، أولاد يفتقرون إلى فضول الولد وفرحه. بل إنهن يمتلكن تحديداً أكثر محدودية من أهلها لأولويات الله. ما من أحد يخلص غيرهن (وكل من يتفق معهن من جنسهن)، لكن الإمكانية مفتوحة للأغلبية إلا لأبناء حام. يُضاف إليهم أتباع البابا وقبائل يهوذا الذين حُرموا من الخلاص إلى جانب مجموعة متنوعة من الأحياء الآخرين الذي

تعمّدوا العيش في الخطأ. ردّت هذه الاستثناءات إلى أنها قيود مألوفة لدى جميع الديانات. فلريبيكا ضغينة شخصية أكثر ضدهم. أولادهم. قالت لنفسها، في كل مرة مات واحد من أولادها، إن مناهضة المعمودية هي التي تثير غيظها. لكن الحقيقة هي أنها لا تستطيع أن تتحمل وجودها إلى جوار أولادهن، الأصحّاء غير الموتى. شعرت، بأكثر من الحسد، بأن كل ضحكة ولد محمر الخدين من أولادهن هي بمثابة اتهام بالفشل، وسخرية منها. وهنّ، على أي حال، رفقة غثّة ولا تساعدها في الوحدة التي قد تهبّ بدون مقدمات وتأسرها عند غياب جاكوب. وهي قد تكون منحنية على بقعة من الفجل، تطرح العشب بمهارة ربّة حانة تُسقط النقود في مئزرها. أعشاب للأنعام. ثم، وهي تقف في ضوء الشمس المصهور، جامعة أطراف مئزرها معاً، تنخفض الأصوات الهنيئة للمزرعة. يحلّ الصمت أشبه بالثلج السابح حول رأسها وكتفيها، يتّسع في انتشاره إلى الأوراق التي يحرّكها الهواء، وهي برغم ذلك صامتة، وأجراس البقر المتدلية، وضربات فأس لينا التي تقطع الحطب في الجوار. تطفح بشرتها ثم تصقع. تعود الأصوات في مآل الأمر، لكن الوحدة قد تستمر لأيام، إلى أن يأتي، في وسطها، ممتطياً حصانه وصائحاً:

«أين هي نجمتي؟».

«هنا في الشمال»، تجيب، فيلقي لفّة من الخام عند قدمها أو يسلمّها علبة من الإبر. والأفضل من ذلك كله هي الأوقات

التي يخرج غليونه ويربك الطيور المغرّدة التي تعتقد أنها تملك الغسق. وقبع طفل لا يزال حيّاً في حضنها. وباتريسيان على الأرض، فاغرة فاها، متوقّدة العينين، وهو يستحضر حدائق ورد ورعاة لم تَرَ أيّ منهما مثلهم أو لن تعرفانهم أبداً. فمعه كلفة الحياة المتوحدة البعيدة عن الكنيسة، ليست مرتفعة.

في إحدى المرات، وقد شعرت بالرضا، سيطرت على سخائها، وإحساسها المفرط بحسن الحال، بما يكفي للإشفاق على لينا.

«لم تعرفي رجلاً أبداً، أليس كذلك؟».

كانتا جالستين عند الجدول، ولينا تحمل الطفل، تدغدغه في ظهره وترشه بالماء لتسمعه يضحك. في حمى آب/أغسطس انطلقتا للاستحمام في جزء من الجدول سها عنه الذباب الحاشد والبعوض الخبيث. ولا يمكن لأحد رؤيتهما إلا إذا أبحر قارب خفيف قريباً جداً من ضفة النهر. ركعت باتريسيان على مقربة تراقب كيف يهتز سروالها في التموجات. وجلست ريبيكا بثيابها التحتية تشطّف عنقها وذراعيها. ولينا، العارية كالطفل الذي تحمله بين ذراعيها، ترفعه إلى الأعلى والأسفل وهي تراقب شعره يعيد ترتيب نفسه في التيار، ثم أمسكت به فوق كتفيها وهي تسقط شلالات من الماء الصافية فوق ظهره.

«عرفت، يا سيدتي؟».

«أنت تفهمينني، يا لينا».

«أفهمك».

«حسناً؟».

«انظروا»، صاحت باتريسيان، وهي تشير.

«ششششه»، همست لينا. «ستصيبينها بالذعر». فات الأوان. ابتعدت أنثى الثعلب وجراؤها سريعاً للشرب من مكان آخر.

«حسناً؟»، كرّرت ريبيكا. «أفعلت؟».

«مرّة واحدة».

«و؟».

«ليست جيدة. ليست جيدة، يا سيدة».

«ولماذا ذلك؟».

«سأسير في الخلف. سأنظف من بعده. لن يتم استرخاصي. لا».

وقفت لينا، وقد أعطت الطفل لوالدته، وسارت إلى علّيقة التوت الأحمر حيث يتدلى ثوبها. وضعته، واحتضنت سلة الغسيل بذراعها، ومدت يدها الأخرى إلى باتريسيان. تمتعت ريبيكا من جديد في ذلك اليوم بمعجزة طالعها الجيّد، وقد تُركت وحدها مع الطفل الذي يفضّل والده أكثر من أي من أولادها. تعرف أن ضرب الزوجة شائع، إلا أن التحديدات لذلك - ليس بعد التاسعة ليلاً، ولسببٍ، وليس نتيجة غضب - تنطبق على الزوجات، والزوجات فقط. هل عشيق لينا من السكان الأصليين؟ ربما لا. رجل غني؟ أو جندي عادي أو

بحّار؟ شكّت ريبيكا في أنه الرجل الغني، لأنها تعرّفت إلى بحارة لطفاء. لكنها، رأت، خلال وظيفتها القصيرة الأمد كخادمة في مطبخ، الجانب الخفي وحسب للخاصة. ما عدا والدتها، لم يضربها أحد أبداً. أربع عشرة سنة وهي لا تزال لا تعرف إذا كانت أمها حيّة. تلقّت مرة رسالة من قبطان يعرفه جاكوب. أفاد، بعد ثمانية عشر شهراً على تكليفه بالبحث، أن عائلتها قد انتقلت إلى مكان لم يحدده، ولا هي عرفته. ولم يقل أحد أين. تساءلت ريبيكا، وهي تنهض من الجدول، وتمدد ابنها على العشب الدافئ وهي ترتدي ملابسها، كيف تبدو أمها الآن. هل شابت، احدودبت، تجعّدت؟ هل العينان الحادتان الشاحبتان لا تزالان تشعان بالدهاء والارتياب اللذين كرهتهما ريبيكا؟ أم إن العمر والمرض قد لطفاها ربما إلى مكر فاقد القوة.

أعادت توجيه سؤالها الآن وقد لزمت الفراش: «وماذا عني؟ كيف أبدو؟ ما الذي يظهر في عيني الآن؟ جمجمة وعظمتان متقاطعتان؟ حنق؟ استسلام؟». وقد أرادتها على الفور، المرآة التي قدمها إليها جاكوب وأعادت لفها بصمت ودسّتها في صوانها. استغرق الأمر وقتاً لإقناع لينا، لكنها عندما فهمت في النهاية وثبتتها بين راحتيها، انقبضت ريبيكا.

«آسفة»، تمتمت. «آسفة أشد الأسف». أضحى حاجباها ذكرى، واللون الوردي الشاحب لخديها تجمّع الآن في براعم ذات لون أحمر ناري. جالت في وجهها ببطء، وهي تعتذر

بلطف. «عيناي، يا عيني العزيزتين، سامحاني. يا أنفي، يا فمي المسكين. آسفة يا فمي المسكين، اللذيذ. صدقيني، يا بشرتي، إنني أعتذر. أرجوك سامحيني».

أخذت لينا، العاجزة عن اقتلاع المرآة منها، في التوسّل إليها.

«سيدتي، يكفي. يكفي».

رفضت ريبيكا وتشبّثت بالمرآة.

آه، كم كانت سعيدة. تتمتع بالقوة والعافية. جاكوب في المنزل ومنشغل في مخططات سكنه الجديد. الأمسيات التي كان فيها منهكاً وقامت بتنظيف شعره؛ وفي الصباحات عندما ربطته. أحبت شهيته الشرهة وافتخاره بطبخها. كان الحدّاد، الذي أصاب الجميع بالقلق ما عداها هي وجاكوب، أشبه بمرساة تثبت الزوجين في مكانهما في مياه لا يمكن الركون إليها. خافت لينا منه. وسورّو كالكلب ممتنة له. وفلورنس، مسكينة فلورنس، مأخوذة كلّياً. وحدها من بين الثلاثة يمكن الاعتماد عليها للوصول إليه. فلينا التي كانت تتوسّل لعدم الذهاب، لا تريد، طبعاً، ترك مريضتها. لكن، الأكثر من ذلك، لأنها تحتقره. أما سورّو الحامل الغبية، فلا يمكنها ذلك. وثقت ريبيكا بفلورنس لأنها فطنة، ولأنها تملك سبباً قوياً للنجاح. وهي تشعر بحنو قوي عليها، على الرغم من أنه استغرق وقتاً ليظهر. لربما اعتقد جاكوب أن إعطاءها فتاة قريبة من عمر باتريسيان سيُرضيها. إلا أنه، في الواقع، أهانها. ما من شيء يمكنه الحلول محل

الأصل، ولا يجب. لذا، فإنها بالكاد ألقت نظرة سريعة عليها عندما جاءت ولم تحتج إلى القيام بذلك لاحقاً، لأن لينا أخذتها تحت جناحها. ومع الوقت، زالت برودة ريبيكا، واسترخت، بل حتى تسلّت بتوق فلورنس إلى الإرضاء. «أحسنتِ». «هذا جيّد». ومهما صغرت اللطافة التي تُظهَر لها، فإنها تمضغ كالأرانب. قال جاكوب إن لا حاجة لوالدتها إليها، الأمر الذي يفسّر، بحسب ريبيكا، حاجتها إلى الإرضاء. وهو يفسّر أيضاً تعلّقها بالحدّاد. تهرع راكضة إليه لأي سبب، وتجنّ لإيصال الطعام إليه على الوقت. صرف جاكوب من ذهنه تجهّم لينا وتألّق فلورنس، وقال إن الحداد سيرحل قريباً. ولا حاجة إلى القلق. ثم إن الرجل ماهر جداً وذو قيمة، ولا يجب التخلي عنه، وبالتأكيد ليس لأن فتاة في حالة صبابة إليه. وجاكوب محق، طبعاً. فقيمة الحداد لا تقدّر بثمن عندما يشفي سورّو مما اعتراها. أصلّي إلى الله أن يتمكّن من تكرار تلك المعجزة. أصلّي أن تستطيع فلورنس أيضاً إقناعه. فقد حشتا رجليها في جزمة متينة جيدة؛ جزمة جاكوب. وطوتا رسالة توضيحية رسمية في داخلها. وتوجيهات السفر التي أعطيت لها واضحة.

سيكون الأمر على ما يرام. تماماً كما اختفى التابوت الذي خلّفها بلا ولد مع نوبات الوحشة، تماماً كما كفّ تصميم جاكوب على الارتقاء في العالم عن إقلاق بالها. قررت أن الرضا عن الحصول على المزيد والمزيد ليس جشعاً، وليس في الأشياء في حد ذاتها، بل هو في اللذة الناتجة عن العملية. ومهما كانت الحقيقة، وكيفما بدت دوافعه، فإن جاكوب كان

هنا، معها. يتنفس في السرير إلى جانبها. يعمل على بلوغها حتى وهو نائم. وها إنه فجأة لم يعد موجوداً.

هل المعمدانيون على حق؟ هل السعادة إغراء من الشيطان، خديعته التي تزيد الشهوة للممنوع إلى ذروتها؟ هل انقطاعها على درجة كبيرة من الوهن، بحيث شكل الأمر طُعماً ليس إلاّ؟ هل اكتفاؤها الذاتي يشكّل تجديفاً صريحاً؟ ألهذا السبب استدار الموت مرّة أخرى لينظر ناحيتها وهي في قمة رضاها، ويبتسم؟ وها إنه يبدو أن رفيقاتها في السفينة يتوافقن معه. وعلى ما علمته من زياراتهن، فإنهن، مهما لفظتهن الحياة، ومهما واجههن من عراقيل، يعالجن الأوضاع لتصب في مصلحتهن، ويثقن بمخيلتهن الخاصة. أما النساء المعمدانيات فيثقن بغير هذا. وهن، على عكس رفيقاتها في السفينة، إما لا يجرؤن، وإما لا يتصدّين لتقلبات الحياة. بل إنهن على العكس يتحدّين الموت. يتحدّينه أن يمحوهن من الوجود، وأن يدعي أن هذه الحياة الدنيوية هي كل شيء؛ وأنه لا يوجد شيء في ما وراءها؛ ولا إقرار بالآلام، وبالتأكيد لا مكافأة. يرفضن السُقْط والعشوائي. فما أثار رفيقاتها في السفينة واستنهضهن، روّع نساء الكنيسة، واعتقدت كل مجموعة أن الأخرى مُعيبة على نحو كبير وخطر. وبرغم عدم وجود شيء مشترك في وجهات نظر بعضهن البعض، فإنهن يتشاركن كلّياً في أمر واحد: وعد الرجال وتهديدهم. اتفقن على أن هنا موطن الأمان والمخاطرة. وقد تفاهمن، بفريقيهما، على ذلك. انسحب بعضهن، على غرار لينا، ممن اختبرن على أيديهم الخلاص والدمار معاً. وأصبح بعضهن

لعبتهم، على غرار سورّو، ممن يبدو أنهن لم يتعلّمن أبداً على أيدي أناث أخريات. بعضهن، مثل رفيقاتها في السفينة، حاربنهم. وغيرهن، الورعات منهن، أطعنهم. وقلّة منهن، على غرارها، بعد علاقة غرامية متبادلة، أصبحن كالأطفال مع رحيل الرجل. فالترمّل هو في الممارسة غير مشروع في غياب مكانة الرجل أو كنفه، وفي غياب مساندة من العائلة أو من متمنّي الخير. لكن، أليس هذا ما يُفترض أن يكون عليه الأمر؟ آدم أوّلاً، وحوّاء من بعده، التي هي أيضاً، وقد أربكها دورها، كانت أول من خرج على القانون.

لا يشعر المعمدانيون بأي إرباك من هذا. فآدم (مثل جاكوب) رجل طيّب، لكن زوجته (على العكس من جاكوب) حفزته وقوّضته. وقد أدركوا أيضاً وجود خطوط من السلوك المقبول والفكر الحق. وبعبارات أخرى، مستويات من الخطايا، وأناس أقل شأناً. السكان الأصليون والأفارقة، على سبيل المثال، يبلغون النعمة، لكن ليس الجنة: جنّة يعرفونها معرفة وثيقة، كما يعرفون حدائقهم الخاصة. فما بعد الحياة أكثر من إلهي؛ إنه متشرّبٌ هِزّة. ليس جنة زرقاء وذهبية من ٢٤ ساعة من أناشيد التمجيد، بل حياة حقيقية ملؤها المغامرة، حيث كل الخيارات تامة ومنفذة بصورة متقنة. كيف تصفها نساء الكنيسة اللواتي تحدّثت إليهن؟ هناك موسيقى وولائم؛ نزهات ورحلات في العربات. مرح. أحلام تتحقق. وربما، إذا كانت الواحدة ملتزمة حقّاً، ودائمة الورع، فقد يتحنّن الله ويسمح لأولادها، على الرغم من أنهم صغار جداً على العماد، بالدخول إلى فلكه.

لكن الأكثر أهمية هو توفّر الوقت، كل الوقت. الوقت للتحادث مع المُخَلّصين، والضحك معهم، بل حتى التزحلق على البرك الجليدية مع نار تفرقع عند الضفة يدفئ فيها المرء يديه. العربات الزلّاجة تجلجل، والأولاد يصنعون بيوتاً من الثلج، ويلعبون بالإطارات الخشبية في المرج الذي يحل فيه الطقس الذي يريدون. فكّري في الأمر. تخيّليه وحسب. لا مرض. لا حمّى أبداً. لا ألم. لا تقدّم في السن أو وهن من أي نوع. لا خسارة أو حزن أو دموع. وبالطبع لا موت أبداً، ولا حتى لو تكسرت النجوم إلى ذرّات، وتفكّك القمر مثل جثّة في قعر بحر.

عليها أن تكفّ عن التفكير وتؤمن وحسب؛ تصرّف لسان زيبيكا الجاف مثل حيوان صغير ضلّ طريقه. وقد اقتنعت أيضاً بوضوح أفكارها رغم إدراكها تشتتها، وما جعل فقدان جاكوب لا يُحتمل، هو أنه أمكنهما في السابق الحديث والجدال حول هذه المسائل. وهو شكّل المعنى الحقيقي للزوج مهما كان مزاجه أو نزعته.

وها إنها تفكّر في أنه لم يعد يوجد أحد سوى الخادمات. أفضل الأزواج رحل ودُفن على أيدي النساء اللواتي خلفهن وراءه؛ غيوم بلون الأطفال الزهري في السماء. سورّو خائفة على مستقبلها بالذات لو أنني متّ، وعليها أن تخاف، وهي الفتاة البليدة الذهن المعوجّة السلوك من جراء عيشها على سفينة خاوية. وحدها لينا راسخة ومتجذرة وقوية الشكيمة، لا تتأثر بأي كارثة كما لو أنها رأت كلّ شيء ونجت منه. كما في تلك السنة

الثانية عندما كان جاكوب بعيداً، وقد علق في عاصفة ثلجية في غير موسمها، وباتت هي ولينا وباتريسيان، بعد يومين، أقرب إلى المجاعة. ما من مسلك أو طريق يمكن عبوره. باتريسيان تنقلب زرقاء برغم نار الروث البائسة المشتعلة في ثقب في الأرض الترابية. وكانت لينا هي التي ارتدت جلد الحيوان، وحملت سلّة وفأساً، واقتحمت ركام الثلج الذي يصل علوّه إلى أعلى الفخذ، والريح التي تخدّر الذهن، لبلوغ النهر. وسحبت هناك، من تحت الجليد، ما يكفي من سمك سليمان للعودة به وإطعامهما. ملأت سلّتها بكل ما أمكنها اصطياده بالفخ. ربطت السلّة إلى ضفائرها لتمنع يديها من التجمّد في مشقّة العودة.

تلك كانت لينا. أم إنه الله؟ تساءلت، هل في هوّة الفقدان، إن كانت الرحلة إلى هذه الأرض، وموت أفراد عائلتها الواحد تلو الآخر، وحياتها كلها، ليست في الواقع إلا محطات تحدد طريق التجلّي. أو الهلاك؟ كيف لها أن تعرف؟ وإلى من تلجأ الآن وشفتا الموت تناديان باسمها؟ إلى حدّاد ما؟ أم إلى فلورنس؟

كم سيستغرق الأمر من وقت. هل يكون هناك؟ هل تضيع أم يهاجمها أحد؟ هل تعود، هل يعود، وهل فات الأوان بالفعل... للخلاص؟

غفوتُ ثم أخذت أفيق على أي صوت، ثم حلمت بأن أشجار الكرز تسير في اتجاهي. أعرف أنه حلم لأنها ملأى بالورق والثمار. لا أعرف ما الذي تريده. أهي تريد النظر؟ أم الشمس؟ انحنت إحداها وأفقتُ والصرخة في فمي. لا شيء تغيّر. الأشجار ليست مثقلة بالكرز، ولا أكثر قرباً إليّ. هدأتُ. إنه حلم أفضل من الحلم بوالدتي التي تقف على مقبرة مع فتى صغير. فهي، في تلك الأحلام، تريد دوماً أن تقول لي شيئاً. توسّع عينيها، وتحرّك فمها. وأنا أشيح بنظري عنها، وأستغرق في النوم من جديد.

أيقظني نور الشمس وليس تغريد العصافير. اختفى الثلج كله. أزعجني قضاء حاجتي، ثم توجّهت شمالاً، على ما أعتقد، وربما توجّهت غرباً. كلا، بل توجّهت شمالاً إلى أن وصلت إلى حيث لم يسمح لي الهشيم بالعبور دون أن يطبق عليّ ويتمسّك بي. وطول العلّيق المنتشر بين الشجيرات يبلغ خصري. مضيت في السير مسرعة ومشيت وقتاً طويلاً، وهذا جيّد، فقد انفتحت أمامي فجأة مرجة غمرها ضوء الشمس ورائحة النار. إنه

مكان يتذكّر كيف احترق. نبت العشب الجديد تحت الأقدام، عميقاً، وسميكاً، وليّناً كصوف الخروف. انحنيت للمسه، وتذكّرت كيف تحب لينا أن أحل شعري. يُضحكها ذلك وتقول إنه برهان على أنني في الحقيقة خروف. و«أنتِ»، أسألُها. «حصان»، تجيب وتنفض عرفها. سرت لساعات في الحقل المشمس، وبلغ بي الظمأ حداً خارت معه قواي. رأيت في الخلف حرجاً خفيفاً من الغوش وشجر التفاح. اللون هناك أخضر فاتح بسبب الأوراق الجديدة. والعصافير تغرّد في كل مكان. كانت رغبتي شديدة في دخوله، فربما وجدت الماء هناك. توقّفت. سمعت وقع حوافر. ثم رأيت فرساناً يخبّون صوبي من بين الأشجار. جميعهم من الذكور، شبّان من السكان الأصليين. بدا بعضهم أصغر سناً منّي. لم يضع أيٌّ منهم سرجاً على حصانه. عجبت منهم ومن وهج بشرتهم، لكنني شعرت أيضاً بالخوف منهم. شدّوا ألجمة أحصنتهم على مقربة مني، ثم تحلقوا من حولي، ابتسموا، وارتعدتُ. إنهم ينتعلون أحذية طريّة، لكن أحصنتهم لا حوافر لها، وشعرُ كلّ من الفتية والأحصنة طويل وطليق كشعر لينا. تحدّثوا بكلمات لا أعرفها وضحكوا. أدخل أحدهم أصابعه في فمه، ثم أخرجها، فتزايد ضحك الآخرين، وضحكه هو أيضاً. ثم رفع رأسه عالياً، وفتح فمه واسعاً ووجه إبهامه إلى شفتيه، فسقطتُ على ركبتيّ بؤساً وخوفاً. نزل عن حصانه واقترب، فشممت عطر شعره. عيناه خزراوان، وليستا كبيرتين ومستديرتين كعيني لينا. ابتسم ابتسامة عريضة وهو ينتزع جراباً يتدلّى من خيط غليظ على صدره. مدّه

صوبي، لكنني كنت أرتجف فلم أبلغه. شرب منه وقدّمه إلي من جديد. أريده، وأموت للحصول عليه، لكنني لا أستطيع أن أتحرك. ما أمكنني فعله هو فتح فمي. اقترب أكثر وسكب الماء وأنا أعبّه. قال أحدهم: «ماء، ماء، ماء»، أشبه بجرو ماعزٍ فضحكوا جميعهم وصفقوا على سيقانهم. أقفل الشاب جرابه، وأعاده إلى كتفه بعدما شاهدني أمسح ذقني، ثم مدّ يده إلى زنّار يتدلّى من وسطه وأخرج حزاماً داكناً، سلّمني إياه، وهو يلوك بأسنانه بصوت مرتفع. بدا أشبه بالجِلْد لكنني أخذته. ما إن فعلت حتى جرى وقفز على حصانه. أصبت بصدمة، ويمكنك تصديق هذا. ركض على العشب وطار ليجلس ممتطياً حصانه. طرفت عيناي، واختفوا جميعهم. لم يعد هناك شيء في المكان الذي كانوا فيه. لم يعد هناك إلا أشجار التفاح التي تجهد لتخرج براعمها، وصدى الصبية يضحكون.

وضعت الحزام الداكن على لساني وصحّ توقّعي. إنه من الجلد، لكن له طعم الملح والبهار بقَدْرٍ أعطى الكثير من الراحة لفَتاتك.

ها أنا مرّة أخرى أتوجّه شمالاً عبر الحرج وأنا أتبع من بعيد آثار أحصنة الصبية. الطقس دافئ ويزداد دفئاً. لكن الأرض لا تزال رطبة بالندى البارد. أنساني ذلك كيف كنّا على الأرض الرطبة، وفكّرت بدلاً منه في سُرُج الليل وفي العشب المرتفع الجاف. امتلأت السماء بالكثير من النجوم، حتى بدا المشهد أشبه بالنهار. وضعتَ يدَك على فمي حتى لا يسمع أحد لذّتي ولا ترتاع الدجاجات النائمة. اهدئي، اهدئي. ليس لأحدٍ أن

يعرف، لكن لينا تعرف. احذري، قالت لي. كنا مستلقيتين في أرجوحتين معلّقتين. وأنا قد عدت للتو من عندك تؤنّبني خطيئتي وأصبو إلى المزيد. طلبت منها أن تفسّر لي. قالت، ثمة حمقاء واحدة في هذا المكان، وهي ليست تلك الحمقاء، وعليّ بالتالي أن أحذر. شعرت بالنعاس فوق الحد ولم أُجب. لم أشأ الردّ. أفضّل التفكير في ذلك المكان تحت فكّك، حيث يلتقي عنقك بالعظم، انحناءة صغيرة بما يكفي لرأس اللسان، لكنها ليست أكبر من بيضة الفرّي. أخذت أغرق في النوم عندما سمعت كلامها، وقلت في نفسي: الروم، إنه الروم. الروم وحسب في المرة الأولى، لأن رجلاً بعلمه وبموقعه في المدينة لن يجلب العار على نفسه وهو صاح. «أدركُه»، أخذت تقول، «أدركُ الحاجة إلى السرّية وأمتثل لها، وأنا لا أنظر أبداً في عينيه عندما يأتي إلى المنزل». تقول، «أنظر فقط إلى الفشكة في فمه أو القضيب الذي يضعه في مفصّلة البوابة، إشارة إلى لقائنا في تلك الليلة. فارقني النوم. جلستُ ولوّحتُ بساقيّ من فوق الأرجوحة المعلّقة. صرّت الحبال وتمايلت. يوجد في صوتها ما يخزني. أمر قديم. أمر قاطع. نظرتُ إليها. كان كلٌّ من تألّق النجوم وتوقّد القمر، كافياً لرؤية وجهها، لكن لم يكن أي منهما كافياً للاطلاع على تعابيرها. ضفيرتها طليقة وبعض خصلاتها تفلت من بين حبكات الأرجوحة المعلّقة. تقول إنها بدون عشيرة وتحت حكم الأوروبيين. تقول إن ما من روم في المرة الثانية أو التي تلتها، لكنه يستعمل هذه المرة راحة يده عندما يغضب، وعندما تسكب زيت المصباح على سرواله التحتي أو يعثر على دودة

صغيرة في يخنته. ثم جاء يوم استخدم فيه قبضته أوّلاً، ثم استخدم السوط. ضاعت قطعة النقود الإسبانية. سقطت من جيب مئزرها المهترىء، ولم يُعثر عليها أبداً. لم يسامح على ذلك. تقول: أصبحت في الرابعة عشرة وعليّ أن أكون على دراية أفضل. وها إنني الآن أفعل. تخبرني كيف هو الأمر عندما كان عليها السير في أزقّة المدينة وهي تمسح الدم عن أنفها بأصابعها، وتتعثّر لأن عينيها مغمضتان، فيعتقد الناس أنها تحت تأثير الشراب على غرار كُثُرٍ من سكان البلاد الأصليين. ويقولون لها ذلك. يحدّق المشيخيّون في وجهها وفي مسحات الدم على ثيابها، لكنهم لا يقولون شيئاً. زاروا المطبعة وعرضوها للبيع. لم يعودوا يسمحون لها بالدخول إلى منزلهم، لذا أخذت، طوال أسابيع، تنام حيث أمكنها ذلك، وتأكل من إناء يتركونه لها عند الرواق، مثل الكلبة، تعوي مثل الكلبة. ثم قام السيّد بعملية الشراء، ليس قبل أن ينسل بعيداً ويقطع رقبتَي ديكين، ويضع رأس كل منهما في كلّ فردة من فردتي حذاء عشيقها. وها إن كل خطوة سيخطوها من الآن وصاعداً، ستقرّبه أكثر إلى الخراب الدائم.

تقول: استمعي إليّ. كنت في عمرك عندما كان الجسد جوعي الوحيد. وللرجال جوعان. والمنقاد الذي يتعهّد بالرعاية يعضّ أيضاً. أخبريني، ماذا سيحصل عندما ينتهي عمله هنا؟ هل سيأخذك معه؟

أنا لا أستغرب هذا. ليس في ذلك اليوم ولا في غيره.

أعرف أنه لا يمكنك أن تسرقني أو تتزوج بي. فأيّ منهما ليس مباحاً. ما أعرفه أنني ذويت عندما رحلتَ، واستقمت حين أرسلتني سيدتي إليك. لا يعني كوني في رحلة لقضاء غرض، أنني هاربة.

جعلني التفكير في هذه الأمور أستمرّ في السير، وليس التمدّد على الأرض والسماح لنفسي بالنوم. أنا تعبة كثيراً، وأتوق إلى الماء.

وصلت إلى مكان يُرعى فيه البقر بين الأشجار، ووجود البقر في الأحراج يعني أن مزرعة أو قرية ما في الجوار. لم يكن السيّد ولا السيدة ليتركا البقرات القليلة التي يملكانها أن تفلت بهذا الشكل، فسيّجا المرجة لأنهما يريدان السماد، وليس النزاع مع الجيران. تنقل السيدة عن السيّد أن العشب سرعان ما سيذوي في المرجة، لذلك يقوم بعمل آخر لأنّ الزراعة لن تكفي أبداً في هذه الأنحاء. فالذباب الأسود وحده سيقضي على أي أمل في ذلك، إن لم تفعل الحيوانات البرّية المغيرة. المزارع تحيا أو تموت حسب رغبة الحشرات، أو وفقاً لمزاج الطقس.

وجدت طريقاً فسلكته. وصلت إلى جسر ضيّق بمحاذاة دولاب طاحون معلّق على أحد الجداول. فالدولاب الذي يصرّ والمياه المتدفّقة هما اللذان يعطيان للهدوء شكله. الدجاجات تغط في نومها والكلاب محظورة. هرعتُ إلى الضفة وعببت من الجدول، وكان طعم الماء أشبه بالشمع. لفظت القش الذي كان يدخل مع كل جرعة وعدت أدراجي إلى أول الطريق. احتجت

إلى مأوى لأن الشمس تغيّب نفسها. شاهدت كوخين لكليهما نوافذ، لكن ما من نور مصباح يشع عبرها. ثمة الكثير مما يشبه الحظائر لا تستقبل ضوء النهار إلا من خلال الأبواب المفتوحة، ولا باب مفتوحاً. لا وجود لرائحة الطبخ في الجو. اعتقد أن الجميع رحلوا. ثم شاهدت صومعة كنيسة صغيرة على تلة وراء القرية، وتيقنّت من أن الناس يقيمون صلاة المساء. قررت أن أقرع باب المنزل الأكبر، الذي لا بد أن يؤوي خادمة في داخله. نظرت من فوق كتفي، وأنا أتوجه صوبه، وشاهدت ضوءاً على مسافة أبعد. إنه المنزل الوحيد المضاء في القرية، فقرّرت الذهاب إلى هناك. اعترضت الحجارة كلّ خطوة من خطواتي وهي تحك الشمع اللاصق بقوة بباطن قدمي. أخذ المطر ينهمر خفيفاً. يجب أن تفوح منه رائحة أشجار الجمّيز التي يعبر من خلالها، إلا أنه فاحت منه رائحة حريق تشبه رائحة الريش المشوط قبل طهو الطير.

ما إن قرعت حتى فتحت الباب امرأة. إنها أطول قامة بكثير من السيدة أو لينا، وخضراء العينين. وما بقي منها هو ثوب بني وقبعة بيضاء. شَعَرَتْ بالارتياب ورفعت يدها وباطنها إلى الخارج، كما لو أنني سأشق طريقي إلى الداخل بالقوة. سألتني عمّن أرسلني. فأجبتها: أرجوك، إنني وحدي، ولم يرسلني أحد. وإنني جئت بحثاً عن مأوى. نظرَتْ إلى ورائي، وتطلّعت يمنة ويسرة، وسألتني: أليس ثمة من يحميك، أليس معك رفيق؟ فقلت: لا أيتها السيدة. ضيّقت عينيها وسألتني بتجهّم: هل أنت من هذه الأرض أم من مكان آخر؟ قلت: من هذه الأرض يا

سيدتي، وأنا لا أعرف غيرها. سألتني: هل أنتِ مسيحية أم وثنية. فأجبت: لست وثنية أبداً، مع أنه تناهى إلي أن والدي ربما هو كذلك. فسألتني عن التزامه، بينما المطر يتساقط بغزارة أكبر، وأنا أترنح جوعاً. فقلت: إنني لا أعرفه وأمي متوفاة. لان وجهها، وهزّت برأسها قائلة: ادخلي أيتها اليتيمة.

أطلعتني على اسمها، الأرملة إيلينغ، لكنها لم تسألني عن اسمي. قالت: عليكِ أن تعذريني، فثمّة خطر من كل جانب. سألتها: أي نوع من الخطر؟ فقالت: الشرّ، ولكن لا تهتمي.

حاولت الأكل ببطء، فلم أتمكّن. بللت الخبز القاسي في عصيدة الشعير الساخنة، ولم أرفع رأسي إلا لأقول شكراً. وهي تسكب المزيد في طاستي التي وضعتُ إلى جانبها قبضة من الزبيب. نحن في غرفة ذات حجم معقول مع موقدة وطاولة وكراسي ومكانين للنوم: سرير خشبي من الطراز القديم ومضجع حقير. ثمة بابان مقفلان يؤديان إلى أجزاء أخرى، ومكان أشبه بالخزانة، والخلفية حيث الأباريق والطاسات. عندما هدأ جوعي بما يكفي، لاحظتُ فتاة مضطجعة على القش في السرير الخشبي. تحت رأسها حرام ملفوف. تنظر إحدى عينيها بعيداً، والأخرى ثابتة لا ترفّ أشبه بعين المستذئبة. كلتاهما سوداء كالفحم، ولا تشبهان في شيء عيني الأرملة. فكّرت بأنه لا يتوجّب عليّ الشروع في أي كلام، لذلك تابعتُ الأكل في انتظار أن تقول الفتاة أو الأرملة شيئاً. ثمة سلّة عند طرف سريرها يضطجع فيها طفل، بلغ به المرض حداً لا يستطيع معه

رفع رأسه أو إحداث صوت. عندما أنهيت طعامي حتى آخر حبة زبيب، سألتني الأرملة عن الهدف من سفري وحيدةً، فقلت لها إن سيدتي أرسلتني لقضاء حاجة. قلبت شفتيها قائلة إن على الأمر أن يكون ذا أهمية جوهرية للمخاطرة بحياة أنثى في هذه الأنحاء، فأخبرتها بأن سيدتي تموت، ومهمتي قد تنقذها. قطّبت حاجبيها ونظرت صوب الموقدة، وقالت: ليس من الميتة الأولى، ربما من الثانية.

لم أفهم ما تعنيه. أعرف أن ثمة ميتة واحدة لا اثنتين، وأن حيوات كثيرة وراءها. أتَذْكُر البوم في ضوء النهار؟ عرفنا فوراً من هي. عرفتَ أن الباهتة هي والدك. أعتقد أنني أعرف من قد تكون الأخرى.

استندت الفتاة النائمة على القش إلى مرفقها، وقالت: إنها الميتة التي جئنا إلى هنا لنموتها. كان صوتها عميقاً كصوت رجل، ولو أنها تبدو في مثل سنّي. لم تجب الأرملة إيلينغ، ولم أشأ النظر في تينك العينين. عاودت الفتاة الكلام وقالت: لا يمكن لأي إسقاط تغيير ذلك، مع أن لحمي مقطّع إلى شرائط. نهضت وعرجت سيراً إلى الطاولة التي ينيرها ضوء المصباح. حملته وأدنته إلى مستوى خصرها، ورفعت تنورتها. شاهدتُ دماً داكن اللون ينتأ على ساقيها. بدت جروحها، في الضوء المنسكب على بشرتها الباهتة، أشبه بجواهر حيّة.

«هذه ابنتي جاين»، قالت الأرملة. «قد تنقذ تلك الجَلدات حياتها».

«تأخر الوقت»، قالت الأرملة إيلينغ. «لن يأتوا قبل الصباح». أغلقت درف الشبابيك، وأطفأت المصباح، وركعت إلى جانب المضجع. عادت الابنة جاين إلى قشّها، وتلت الأرملة صلاتها همساً. الظلمة هنا أعظم من ظلمة زريبة البقر، وأشد من عتمة الغابة. لا ينفذ ضوء القمر ولو من شقّ واحد. تمددتُ إلى جانب الطفل المريض والموقد، وحطّم صوتاهما رقادي. يحل صمت طويل، ثم تتحدّثان. يمكنني الجزم في من تتحدث، ليس فقط من خلال تحديد وجهة الصوت، بل أيضاً لأن الأرملة إيلينغ تلفظ الكلمات بطريقة مختلفة عن ابنتها، بطريقة أكثر غنائية. وهكذا، عرفت أن الابنة جاين هي التي تقول: «كيف يمكنني أن أثبت أنني لست شيطاناً» وأن الأرملة هي التي تقول: «ششش، إنهم هم الذين سيقررون». صمت. صمت. ثم عادتا إلى تبادل الكلام. إنهم يشتهون المرعى، يا أمي. ولماذا لست أنا إذاً؟ قد تصبحين التالية. يقول اثنان على الأقل إنهما شاهدا الرجل الأسود، وإنه... وتوقّفت الأرملة إيلينغ ولم تتفوه بالمزيد لبعض الوقت، ثم قالت: سنعرف مع حلول الصباح. سيسلّمون بأنني كذلك، قالت الابنة جاين. تحدثتا سريعاً مع بعضهما البعض. المعرفة لهم، الحقيقة لي، الحقيقة لله، فأي بشري يمكنه إذاً أن يُدينني، تتحدثين مثل إسباني، اسمعي، أرجوك أن تسمعي، اهدئي لئلا يسمعك، وهو لن يتخلّى عني، وأنا لن أتخلّى عنه. وبرغم ذلك أدميتِ جسمي، فكم من مرة يجب أن تسمعي أن الشياطين لا تنزف.

لم تقلْ لي ذلك أبداً، ومن المستحسن أن أعرف. كان بإمكان والدتي أن تعلّمني هذه الأمور لو لم تكن ميتة.

أعتقدُ أنني وحدي التي غفوت وقد أفقت خجلة لأن الحيوانات في الخارج أخذت في الخوار. أصدر الطفل ثغاءً خفيفاً عندما انتشلته الأرملة بين ذراعيها وأخذته إلى الخارج للعناية بإحدى أناث الحيوانات التي وضعت حديثاً. وقامت، بعودتها، بفتح النافذتين، وتركت الباب مشرّعاً على مصراعيه. دخلت عنزتان وهما تتمايلان تتبعهما دجاجة وهي تختال. وطارت أخرى عبر النافذة وانضمت إلى عملية البحث عن الفتات. استأذنتُ في استخدام المغسلة وراء ستارة من القنّب، ولما انتهيت وخطوت خارجة، شاهدت الابنة جاين والأرملة تمسك وجهها بيديها وهي تداوي جروح الساقين. لمعت خطوط الدم الجديدة وسط القديمة منها. دخلت عنزة واتجهت صوب القش وهي تقضم، في حين كانت الابنة جاين تجهش بالبكاء. وبعدما انتهت الأرملة من فعلها الدموي وارتضت، دفعت بالعنزة إلى خارج الباب.

اشتملت طاولة الفطور على اللبن والخبز. أمسكت الأرملة والابنة جاين براحات أيديهما، وأحنتا رأسيهما، وتمتمتا. وفعلت مثلهما، وأنا أهمس بالصلاة التي علّمني الأب المحترم أن أتلوها صباحاً ومساءً ووالدتي ترددها معي، صلاة الأبانا. رفعتُ رأسي أخيراً لألتقط تقطيبة حاجبيْ الابنة جاين. هزّت برأسها علامة النفي، فادعيتُ أنني أصلح قبعتي. دسسنا ملاعق الأرملة

في اللبن، وأكلنا معاً. ورفضت جاين الطعام، فتناولنا ما لم تأكله. توجهّت الأرملة بعد ذلك إلى الموقد وأرجحت الإبريق فوق النار. أخذتُ الطاسات والملاعق عن الطاولة إلى الغرفة الضيقة، حيث يوجد حوض ماء على طاولة عمل ضيّقة. اعتنيت بتشطيف كل قطعة ومسحها. الجو خانق، ويبلغ الماء حد الغليان في الإبريق المتدلّي في الموقد. استدرتُ وشاهدت بخاره يرسم أشكالاً وهو يتلوّى على الحجر، وبدا أحد الأشكال أشبه برأس كلب.

سمعنا جميعنا وقع أقدام في الممر. أنا لا أزال منشغلة في الغرفة الضيقة، وسمعتُ الحديث على الرغم من عدم تمكني من رؤية مَن الداخل. عرضت الأرملة على الزائرين الجلوس فرفضوا. قال صوت رجل إن الأمر تمهيدي، لكن الشهود كثر. قاطعته الأرملة بالقول إن عين ابنتها فيها حَوَل بحسب ما كوّنها الله، ولا تملك قوى خاصة. وقالت: انظر إلى جروحها، فابن الله ينزف. نحن ننزف، أما الشياطين فلا تنزف أبداً.

دخلتُ الغرفة فوجدت رجلاً وثلاث نساء وفتاة صغيرة، ذكّرتني بنفسي عندما أرسلتني والدتي بعيداً. فكّرت كم بدت جذّابة وهي تصرخ وتختبئ وراء تنورة إحدى النساء. وعند ذاك استدار كل من الزوار للنظر إليّ. شهقت النساء، وطرطقت عصا العكاز التي يحملها الرجل على الأرض، فدفعت بالدجاجة المتبقية إلى أن تقوقئ وتخفق بجناحيها. سحب عصاه ووجّهها صوبي، وسأل عمّن أكون. غطّت إحدى النساء عينيها وقالت: فليساعدنا الله. ناحت الفتاة الصغيرة وتطوّحت إلى الأمام وإلى

الوراء. لوحّت الأرملة بيديها الاثنتين قائلة إنها ضيفة سعت إلى ملجأ من الليل، وقد استقبلناها، وكيف لا؟ وقد أطعمناها. أي ليلة؟ سأل الرجل، فأجابته إنها الليلة التي مضت. تحدّثت إحدى النساء قائلة: أنا لم أشاهد أبداً أي بشريّ بهذا السواد. أنا فعلت، قالت أخرى، وهذه سوداء كسواد الآخرين الذين رأيتهم. إنها أفريقية. أفريقية وأكثر، قالت أخرى. انظروا وحسب إلى هذه الطفلة، قالت المرأة الأولى، وأشارت إلى الفتاة الصغيرة التي ترتجف وتئن إلى جانبها. اسمعوها. اسمعوها. صحيح إذاً، قالت أخرى، الرجل الأسود بيننا. إنها تابعته. الفتاة الصغيرة لا تتعزّى. أخذتها المرأة التي تعلّقت بتنورتها إلى الخارج، حيث حدث سريعاً. أنا لا أعي شيئاً سوى أنني في خطر كما يظهر ذلك رأس الكلب، والسيّدة هي دفاعي الأوحد. صرختُ، انظروا. صرختُ: أرجوك يا سيدي. أعتقد أنهم فوجئوا بأنه في وسعي الكلام. دعوني أرِكُم الرسالة، قلت بصوت أكثر هدوءاً. فهي تثبت أنني غير تابعة لأحد سوى لسيدتي. فغر فم كل من النساء، وأشاح الرجل بنظره ثم أعاده ببطء. سحبتُ رسالة سيدتي وقدمتها إليهم، إلا أن أحداً لم يلمسها. أمرني الرجل بأن أضعها على الطاولة، لكنه خشي فض الختم. طلب من الأرملة القيام بذلك. رفعت الشمع بأظافرها. وعندما سقط، فتحت الورقة التي كانت أكثر سماكة من أن تبقى مستوية بنفسها. حدّق الجميع، بمن فيهم الابنة جاين التي نهضت من سريرها، في الخطوط رأساً على عقب، وبدا واضحاً أن الرجل وحده يستطيع القراءة. وضع رأس عصاه على الورقة، وأدار رأسها إلى أعلى

وأبقاها هناك كما لو أنه يمكن أن تطير الرسالة بعيداً وتتحوّل بدون نار إلى رماد أمام ناظريه. انحنى وتفحّصها عن قرب، ثم رفعها وقرأ بصوت مرتفع.

تكفل الموقّعة على هذه الرسالة، السيدة ريبيكا فارك من ميلتون، الشخص الأنثى التي وُضعت بين يديها. أنا أملكها، ويمكن التعرّف إليها من خلال علامة حرق في راحة يدها اليسرى. تلطفوا بالسماح لها بالعبور الآمن ودعوها تمرّ إلى حيث تحتاج لإكمال مهمتها. تعتمد حياتنا، وحياتي، على هذه الأرض على عودتها السريعة.

التوقيع ريبيكا فارك، السيدة ميلتون

١٨ أيار/ مايو ١٦٩٠

كلّ شيء هادئ ما عدا صوت ضعيف أطلقته الابنة جاين. نظر الرجل إليّ، ثم عاود النظر إلى الرسالة، ثم إليّ فإلى الرسالة. ومن جديد إليّ، ومرّة أخرى إلى الرسالة. كما رأيتَ، قالت الأرملة. تجاهلها واستدار إلى المرأتين وهو يهمس لهما. أشارتا لي إلى باب يفتح على غرفة المؤونة وطلبتا مني هناك، وأنا واقفة بين صناديق النقل ودولاب الغزل، أن أخلع ثيابي. أملتا عليّ ما يجب القيام به دون أن تلمساني: أن أبرز لهما أسناني ولساني. قطبتا حواجبهما لرؤيتهما ندبة حرق الشمعة على راحة يدي، الحرق الذي قبّلتَه ليبرد. نظرتا تحت إبطيّ، وبين ساقيّ. دارتا من حولي، وانحنتا لمعاينة قدميّ. راقبتُ لأرى ماذا

في أعينهما. لا يوجد فيها حقد أو نفور، بل إنهما تنظران إلى جسمي عبر مسافات لا يمكن التعرّف إليها. فالخنازير تنظر إلي بارتباط أكثر عندما ترفع رؤوسها من المعلف. أشاحت المرأتان نظريهما عني بالطريقة التي قلتَ لي إنه علي القيام بها مع الدببة حتى لا تقرب الحب واللعب. وطلبتا مني في النهاية أن أرتدي ملابسي وأغادر الغرفة بعدما أغلقتا الباب وراءهما. ارتديت ملابسي. سمعت شجاراً. عادت الفتاة الصغيرة، وهي لم تعد تشهق بالبكاء الآن، لكنها تقول «ذلك يخيفني، ذلك يخيفني»، سأل صوت امرأة إذا كان يمكن أن يكتب الشيطان رسالة. وقالت أخرى إن إبليس مليء بالخداع والاحتيال. لكن حياة امرأة على المحك. قالت الأرملة، فمن سيعاقب الربّ عندها؟ هدر صوت الرجل. قال إنه سيحيل الأمر على الآخرين. سندرس الأمر، ونتشاور ونصلّي ونعود بالجواب. بدا أنه ليس واضحاً إذا كنت، أو لا، تابعة الرجل الأسود. عبرتُ إلى الغرفة وصرختُ الفتاة الصغيرة وخبطت ذراعيها. أحاطت بها النسوة وهرعن خارجات. طلب مني الرجل ألا أغادر المنزل. أخذ معه الرسالة، وتبعته الأرملة عبر الطريق الضيّق وهي تتوسّل، وتتوسّل.

عادت لتقول إنهم في حاجة إلى مزيد من الوقت للتشاور في ما بينهم، وإن الأمل يحدوها بسبب الرسالة. ضحكت الابنة جاين، وركعت الأرملة إيلينغ لتصلّي. صلّت وقتاً طويلاً ثم نهضت قائلة إنه عليّ أن ألتقي أحداً ما. فأنا أحتاج إلى شهادته ومساعدته.

«من»، سألت الابنة جاين.

«الشريف»، قالت الأرملة.

لوت الابنة جاين فمها من وراء ظهر والدتها وهي تغادر.

تسلّط عليّ الخوف وأنا أراقب الابنة جاين تعتني بجراح ساقيها. ارتفعت الشمس في السماء ولمّا تعد الأرملة بعد. انتظرنا، وأخذت الشمس تتثاقل مع الوقت. سلقت الابنة جاين بيوض بط ولفّتها، لما بردت، بقطعة من القماش. طوت حراماً وناولتني إياه، وأشارت إليّ بإصبع واحدة لأتبعها. غادرنا المنزل، ومشينا بخطوات سريعة إلى الخلف. نقّت جميع أنواع الطيور وطارت من حول أقدامنا، فركضنا عبر المرعى. استدارت العنزة المُرضعة لتنظر، لكن الذكر لم يفعل ذلك وهي علامة سيئة. حشرنا نفسينا بين خشب السياج وركضنا إلى الحرج. وها نحن نسير الآن بهدوء، والابنة جاين تسير في الطليعة. أفرغت الشمس نفسها، ساكبة ما بقي عبر ظلال الشجر. العصافير والحيوانات الصغيرة تأكل وتنادي على بعضها البعض.

بلغنا جدولاً، جافاً في معظمه، وموحلاً في الأمكنة الأخرى. شرحتْ لي كيف أذهب، وأين سيأخذني السبيل إلى طريق الخيل التي ستوصلني إلى الدسكرة التي آمل أنك فيها. شكرتُها ورفعتُ يدها لأقبّلها. قالت «لا، أنا التي أشكرك. سيبحثون عنك وينسون أمري». قبّلتْ جبيني ثم راقبتني وأنا أخطو عبر مجرى الجدول الجاف. استدرتُ ونظرت إليها. سألتها، هل أنتِ شيطان؟ فجمدت عينها المُطفأة وابتسمت: «نعم. آه، نعم. اذهبي الآن».

سرت وحدي ما عدا العيون التي انضمت إليّ في رحلتي. أعين لم تعترف بي. أعين فحصتني بحثاً عن ذَنَب، عن حلمة ثدي إضافية، عن سَوط رجل بين ساقي. أعين متسائلة تحدّق وتقرّر إذا كانت سُرّتي في المكان الصحيح، وإذا كانت ركبتاي تطويان إلى الوراء مثل قائمي الكلب الأماميين. يُردن أن يعرفن هل لساني مشقوق كلسان الحيّة، أم أن اسناني محدّدة مسنّنة لابتلاعهن. ليعرفن إذا كان في وسعي القفز من الظلمة والعض. أخذت أتقلّص من الداخل. تسلقت مجرى الجدول تحت أبصار الأشجار وعرفت أنني لم أعد أنا نفسي. فأنا أفقد شيئاً مع كل خطوة أخطوها. أمكنني الشعور بالاستنزاف. ثمة شيء ثمين يغادرني. أنا شيء مختلف. فأنا مع الرسالة صاحبة انتماء وقانونية. وبدونها أنا عجْلة ضعيفة تخلّى عنها القطيع، سلحفاة بدون درقة، تابعة بدون علامات مميزة سوى السواد الذي وُلدت فيه، من الخارج، نعم، لكن من الداخل أيضاً. والسواد الداخلي صغير، مريّش وناشز الأسنان. أهذا ما تعرفه أمي؟ لماذا اختارتني للعيش بدوني؟ ليس السواد الخارجي الذي نتقاسمه، الأم التي لي، وأنا، بل السواد الداخلي الذي لا نتشاطره. أهذا الموت موتي وحدي؟ هل الشيء المَخْلبي المريّش هو الحياة الوحيدة في داخلي؟ أنت ستقول لي. فخارجك أسود أيضاً. وعندما أراك وأنغمس فيك أعرف أنني حيّة. وفجأة لم يعد الأمر كالسابق عندما كنت في خوف دائم. لم أعد خائفة من أي شيء الآن. فالشمس الراحلة تخلّف الظلمة وراءها، والظلمة في داخلي. إنها نحن. إنها موطني.

لم تبالِ عندما أسموها سورّو ما دامت التوأم استمرت في استخدام اسمها الحقيقي، فمن السهل الإصابة بالارتباك. أحياناً تحتاج إليها الزوجة أو النشّار أو الابنان؛ وأحياناً أخرى تحتاج إلى رفقة التوأم للسير أو اللعب. وامتلاك اسمين مناسب لأنه لا يمكن لأي شخص آخر رؤية التوأم. فلو أنها تنظّف الثياب بالفرك الشديد، أو ترعى الأوز وتسمع الاسم الذي استخدمه القبطان، تعرف أنها التوأم. أما إذا نادى أي صوت «سورّو» فإنها تعرف ماذا تتوقّع. والأفضل، بالطبع، أن تناديها التوأم من بوابة الطاحون، أو تهمس قريباً من أذنها، وعند ذاك تتخلى عن أي عمل تقوم به وتتبع ذاتها المتماثلة.

التقتا تحت سرير الجرّاح المعلّق في السفينة المنهوبة. رحل جميع الناس أو غرقوا، ولربما فعلت ذلك هي أيضاً لو لم تكن غارقة في نومٍ عميقٍ نتيجة تخديرها في عيادة الجراحة في السفينة. نُقلتْ إلى هناك لإزالة الدمامل من عنقها، وقد شربت المزيج الذي قال الجرّاح إنه سيمنع الألم. لذا، لم تعرف بالأمر عندما غرقت السفينة بعد امتلائها بالماء، ولم تعرف أيضاً هل

نجا أي راكب أو أي من العمّال الذين لم يتم القضاء عليهم. جلّ ما تتذكّره هو نهوضها للسير، وحدها، بعد سقوطها على الأرض تحت الأرجوحة المعلّقة. لم تجد القبطان، ولا والدها، في أي مكان.

لم تعش سورّو على اليابسة أبداً قبل مجيئها إلى منزل النشّار. وها إن ذكريات السفينة، المنزل الوحيد الذي عرفته، تبدو وقد سُرقت تماماً كحمولتها: بالات من الثياب، صناديق من الأفيون، أقفاص من الذخيرة، أحصنة وصناديق من دبس السكّر. اختفى أي أثر للقبطان. وبعدما فتشت عن ناجين وطعام، بدأت تلحس بإصبعها الدبس المندلق من الجسر إلى فمها مباشرة، وأمضت الليالي تستمع إلى الريح الباردة والبحر المتلاطم. انضمت إليها التوأم تحت السرير المعلّق وبقيتا معاً منذ ذاك الحين. كشطت كلتاهما السارية المكسورة، وشرعتا في السير على خط الشاطئ الصخري. ضاعفت قطع السمك الميت التي تناولتاها من عطشهما الذي نسيتاه لدى رؤية جثتين تتأرجحان مع الموج. وأدى الانتفاخ والتمايل بهما إلى ما يكفي من التهور للسير في الماء بعيداً عن الصخور في بحيرة ذات شطآن، في وقت بدأ المدّ تحرّكه. انجرفت كلتاهما إلى المياه العميقة، وسارتا ما أمكنهما إلى أن غلب البرد عليهما، وسبحتا، ليس في اتجاه الشاطئ، بل في اتجاه الأفق. حالفهما الحظ الجيّد، لأنهما دخلتا جَزْراً مندفعاً بسرعة وجموح، صوب الشاطئ والنهر الذي وراءه.

أفاقت سورّو فوجدت نفسها عارية تحت غطاء، مع رقعة دافئة رطبة على جبينها. طغت عليها رائحة الخشب المهروس. وكانت امرأة بيضاء الشعر تراقبها.

«يا له من منظر»، قالت المرأة وهي تهزّ برأسها.

«يا لمنظرك المكرب. إلا أنني أعتقد أنك قوية بالنسبة إلى خادمة». سحبت الحرام صعوداً إلى ذقن الهائمة في البحر. «اعتقدنا من ثيابك أنك فتى، إلا أنك برغم ذلك لست ميتة».

إنه لخبر جيّد، لأن سورّو اعتقدت أنها كذلك إلى أن ظهرت التوأم عند قدم المفرش الحقير، مبتسمة، وهي تمسك وجهها بيديها. تعزّت سورّو فنامت من جديد، لكن بسهولة الآن والتوأم مستكينة على مقربة منها.

أفاقت في اليوم الثاني على صرير المناشير ورائحة نشارة الخشب الأكثر كثافة. جاءت زوجة النشّار حاملة قميص رجلٍ وسروالَ صبي.

«ستفي هذه بالغرض الآن. عليّ أن أصنع لك شيئاً يناسبك أكثر، لأنه لا يوجد ما يمكن استعارته في القرية. ولن يتوفّر أي حذاء لفترة».

ارتدت سورّو ثياب الفتى ورأسها يدور وهي تترنح، ثم تبعت رائحة الطعام. ما إن تناولت فطوراً مشبِعاً، حتى أصبحت على ما يكفي من اليقظة لتقول أشياء، ولكن دون أن تتذكّر

الأمور. عندما سألوها عن اسمها، همست التوأم لا، وهزت كتفيها ووجدت في ذلك حركة مناسبة للمعلومات الأخرى التي لا يمكنها أن تتذكرها، أو أن تدّعي أنه لا يمكنها تذكّرها.

أين تقيمين؟

على السفينة.

نعم، لكن ليس دائماً.

دائماً.

أين عائلتك؟

رفعت كتفيها.

من غيرك كان على السفينة؟

النوارس.

أي أناس، يا فتاة؟

اكتفت بهزة كتف.

من كان القبطان؟

هزّة كتف أخرى.

حسناً، كيف بلغت اليابسة؟

عرائس البحر. أعني الحيتان.

عند هذا الحد أطلقت عليها ربة المنزل اسماً. أعطتها في اليوم التالي ثوباً من الخيش، وقبعة نظيفة لتغطي شعرها المنفوش

بعض الشيء، وطلبت منها الاهتمام بالأوز. ارمي لها الحبوب، وسوقيها إلى الماء، ولا تتركيها تبتعد. تصارعت سورّو الحافية القدمين مع جاذبية الأرض المكرية. وقد زلّت وتعثّرت مرات كثيرة في ذلك اليوم الأول عند البركة، وعندما هاجم أحد الكلاب أوزتين صغيرتين ودبّت الفوضى، استغرقتها إعادة جمع القطيع دهراً. استمرّت على هذا المنوال لبضعة أيام إضافية، إلى أن استسلمت ربّة المنزل وكلفتها بشؤون التنظيف البسيطة. لم تكن نتيجة أي منها مرضية، لكن لذّة توبيخ خادمة غير كفيّة فاقت أي رضا على وظيفة أُنجزت كما يجب. واحتدمت ربة المنزل بسعادة عند كل زاوية غير مكنّسة، والنار المشتعلة على نحو سيىء، والوعاء غير المفروك كما يجب، وثلم في الحديقة أهمل انتزاع أعشابه، وطائر أسيء نتف ريشه. ركزت سورّو على أوقات وجبات الطعام وعلى فن الهروب في مسيرات قصيرة مع التوأم، واللهو بين المهام، أو عوضاً عن القيام بها. وقد حصلت أحياناً على صحبة سرّية، غير التوأم، لكنها ليست أفضل من التوأم التي شكّلت سلامتها، وسلواها، ومرشدتها.

أخبرتها ربة المنزل أنه دم العادة الشهرية؛ وأن جميع النساء يشتكين منه، وقد صدّقتها سورّو إلى الشهر التالي والذي بعده والذي تلاه عندما لم يعاودها. تحدّثت والتوأم في الأمر، وهل هو نتيجة الأمور المريبة التي حصلت وراء كومة الألواح الخشبية، بمشاركة الأخوين، بدلاً مما قالته ربة المنزل، لأن الألم حصل خارجاً، بين فخذيها، وليس في الداخل حيث قالت ربة المنزل إنه أمر طبيعي. كان الألم موجوداً عندما طلب النشّار

من السيّد أن يأخذها بعيداً، قائلاً إنه لا يمكن لزوجته الاحتفاظ بها.

سأل السيد «أين هي؟»، واستُدعيت سورّو إلى المنشرة.

«كم عمرها؟».

وعندما هزّ النشّار رأسه، قالت سورّو: «أعتقد أنني قد بلغت الحادية عشرة».

همهم السيّد.

قال النشّار: «لا تهتم باسمها. يمكنك تسميتها ما شئت. زوجتي أسمتها سورّو لأنه تم التخلي عنها. وهي هجينة بعض الشيء كما يمكنك أن ترى. ومهما يكن الأمر، فهي ستعمل بدون شكوى».

اعتلت السرج وراء السيد لأميال كثيرة لم تتوقف فيها إلا مرّة واحدة في الطريق. كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها حصاناً، فأبكاها الحريق. وبعدما تأرجحت واصطدمت بالسيد وتعلّقت بمعطفه، تقيأت عليه. أوقف الحصان وأنزلها، وتركها تستريح وهو يمسح معطفه بورق حشيشة السعال. تناولت قربة الماء منه، لكنها تقيّأت الجرعة الأولى مع كل ما بقي في معدتها.

«سورّو بالتأكيد»، تمتم السيّد.

شعرت بالعرفان لدى اقترابهما من مزرعته، حيث أنزلها لتتمكن من أن تقطع ما بقي من الطريق سيراً. كان ينظر من

حوله كل بضعة فراسخ للتأكد من أنها لم تسقط أو تُصب بالغثيان من جديد.

ابتسمت التوأم وصفقت بيديها عندما لمحت المزرعة. تطلّعت سورّو وهي خائفة حولها، على طول الطريق وهي تركب خلف السيّد، وربما كان خوفها أشد لو لم تصب بالغثيان إضافة إلى الألم. تفرّعت أميال من شجر التنّوب أشبه بصواري السفن السوداء، ولما صارت بعيدة ألفت أشجار الصنوبر، التي يبلغ قطرها طول الحصان، بظلالها فوق رأسيهما. لم تتمكن، برغم محاولاتها كلها، من رؤية رؤوسها التي، بحسب ما تعرفه، تشق عباب السماء. وأخذ، بين الفترة والأخرى، شكل ضخم ذو فرو يقف بين الأشجار، يراقبهما وهما يمرّان به على ظهر الحصان. وفي إحدى المرات، اضطر السيّد، عندما اعترض أيّل سبيلهما، إلى أن ينعطف ويدور بالحصان أربع مرات قبل أن يتمكن من التقدّم من جديد. وهكذا، عندما تبعت حصان السيد إلى فسحة تعبق بالشمس، وسمعت وَقْوَقَةَ البط، شعرت هي والتوأم براحة كبيرة لم يسبق لها مثيل. وعلى عكس ربة المنزل، كان أنفا السيّدة ولينا صغيرين ومستقيمين؛ بشرة السيّدة مثل بياض البيض، وبشرة لينا مثل سُمرة قشرتها. أصرّت لينا، قبل أي شيء، قبل الطعام أو الراحة، على غسل شعر سورّو. لم تزعجها الغصون الصغيرة وقطع القش القابعة تحت قبعتها وحسب، بل خشيت من القمل أيضاً. وهو خوف فاجأ سورّو التي اعتقدت أن القمل، مثل القُراد، والبراغيث أو أي من محتلّات الجسم الأخرى، يشكل إزعاجاً أكثر من كونه خطراً. واعتقدت لينا

العكس، وقامت، بعد غسل الشعر، بفرك جسم الفتاة مرتين قبل السماح لها بدخول المنزل. ثم أعطتها، وهي تهزّ رأسها من جانب إلى آخر، خرقة مملّحة لتنظّف أسنانها.

أعلن السيّد، وهو ممسك بيد باتريسيان، أنه يجب احتجازها في المنزل ليلاً. ولما سألت السيّدة عن السبب، قال: «قيل لي إنها تسرح».

تكوّمت سورّو في صقيع تلك الليلة الأولى على بساط قرب الموقد، فغفت وأفاقت، يهدّئها في شكل مستمر صوت التوأم الذي يصف الآلاف من الرجال يعبرون الموج ويغنّون بدون كلمات، وكيف أن أسنانهم تلألأت أكثر من الزبد تحت أقدامهم. وكيف، عندما أظلمت السماء وأشرق القمر، أصبح لون أطراف بشرتهم السوداء كالليل فضيّاً، وكيف أن رائحة الأرض، اليانعة والغنية بالرمل المترب، ابهجت أعين الطاقم لكنها أبكت السائرين في البحر. هدّأ صوت التوأم ودهن الحيوان الذي فركت به لينا أجزاءها السفلى فغرقت سورّو في أول نوم هانئ لها منذ أشهر.

وبرغم ذلك، فإنها، في ذلك الصباح الأول، تقيّأت فطورها ما إن ابتلعته. قدّمت إليها السيدة شاي زهر القنديل وجعلتها تعمل في حديقة الخضار. أمكنها، وهي تقتلع اللفت المتأخر من الأرض، سماع السيّد وهو يكسر الصخور في حقل بعيد. استوطنت باتريسيان طرف الحديقة وهي تأكل تفاحة صفراء وتراقبها. لوحت لها سورّو بيدها. ردّت باتريسيان بتلويحة،

وظهرت لينا وأبعدت الفتاة سريعاً. ومن ذلك اليوم اتضح للتوأم، إن لم يكن لسورّو، أن لينا تحكم على كل شيء وتقرّر كل شيء، وليس السيد والسيدة. عيناها في كل مكان حتى وهي ليست في أي مكان. تنهض قبل صياح الديك. تدخل المنزل في الظلمة، تلمس سورّو النائمة برأس خفّها الليّن وتتلكّأ وهي تحرّك الجمر في الرماد. تتفحّص السلال، وتنظر تحت أغطية الجرار. فكّرت سورّو في أنها تتحقّق من المخزون. كلاّ، قالت التوأم، إنها تتحقّق من أنك لم تسرقي الطعام.

لا تتحدّث لينا إلا بالقليل جداً إليها، فلا «صباح الخير» حتى، بل فقط عندما يكون ما عليها أن تقوله طارئاً. وهي بالتالي التي أخبرت سورّو بأنها حامل. أخذت لينا سلة الذرة من يديّ سورّو. نظرت مباشرة في عينيها وقالت، «أتعلمين بأنك تحملين طفلاً، طفلاً؟».

فغر فم سورّو، ثم طارت فرحاً لفكرة وجود إنسان عادي، إنسان من لحمها ودمها، ينمو في داخلها.

«ماذا عليّ أن أفعل؟»، سألت.

اكتفت لينا بالتحديق إليها، وسارت مبتعدة وقد أسندت السلّة إلى ردفها. وفي حال أن السيّدة عرفت، فهي لم تقل شيئاً لأنها كانت هي أيضاً حاملاً. جاء مخاض سورّو في أقرب مما يجب كي يعيش المولود، بحسب ما قالت لها لينا، لكن السيّدة ولدت صبياً سميناً طيّبَ نفس الجميع، على مدى ستّة أشهر. وضعوه مع شقيقه عند أسفل المرتفع وراء المنزل وتلوا الصلوات. ومع

أن سورّو اعتقدت أنها رأت مولودها الجديد يتثاءب، فإن لينا لفّته في قطعة من الخيش وجعلته يهيم في الماء في الجزء الأوسع من النهر، بعيداً تحت سدّ القندس. «لم يحمل اسماً». انتحبت سورّو، لكن التوأم طلبت منها ألا تفعل. «أنا معك على الدوام»، شكّل ذلك بعض التعزية، لكن الأمر تطلّب سنوات لتنحسر أفكار سورّو عن طفلها الذي يتنفّس ماء من تحت راحة يد لينا. وفي غياب من تتحدّث معه، أخذت تركن إلى التوأم أكثر فأكثر. معها لم تحتج سورّو أبداً إلى صداقة أو محادثة. وحتى، وقد جعلوها تنام في الداخل، وُجدت قصص تستمعان إليها، وأمكنهما التسلّل معاً بعيداً في خلال النهار للتنزّه والعبث في الغابة. وثمة أيضاً الكرز والجوز من الشمّاس. إلا أنه كان عليها كتمان الأمر. فقد جاءها مرة بمنديل عنق عبّأته بالحجارة ورمته في النهر، لمعرفتها أن مثل هذه الزينة ستثير حنق لينا وتنبيه السيّدة. وعلى الرغم من أن طفلاً آخر من صبيي السيّدة لقي حتفه، فإن باتريسيان حافظت على صحتها. وبدا، لبرهة وجيزة، أن لينا مقتنعة بأن وفاة الصبيين ليست خطأ سورّو، لكنها غيّرت رأيها عندما حطّم أحد الأحصنة أعلى رأس باتريسيان.

ثم جاءت فلورنس.

ثم أتى الحدّاد، مرتين.

عندما وصلت فلورنس في ذلك الشتاء المرير، ابتسمت سورّو، الفضولية والسعيدة لرؤية شخص جديد، وكادت تتقدم لتلمس واحدة وحسب من ضفائر الفتاة السميكة. لكن التوأم

أوقفتها، منحنية إلى قرب وجه سورّو، وصارخة: «لا! لا تفعلي!». أدركت سورّو غيرة التوأم وأشاحت بوجهها بعيداً، لكن ليس بما يكفي من السرعة. حملت لينا الطفلة، بعدما التقطت شالها ولفّته حول كتفيها، ونقلتها إلى حظيرة البقر. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الفتاة ملكاً لها. نامتا معاً، استحمّتا معاً، تناولتا الطعام معاً. صنعت لها لينا ثياباً وحذاءً صغيراً من جلد الأرنب. وكلّما اقتربت سورّو تقول لينا «هرولي»، أو ترسلها في مهمّة تتطلب القيام بها فوراً، وتجعل في الوقت ذاته الجميع يشاركونها في سوء الظن الذي يتوهّج في عينيها. واستذكرت سورّو كيف أنهما ضاقتا ومضتا عندما جعلها السيّد تنام في الداخل. لم تنس سورّو أبداً، على الرغم من أن لينا ساعدتها في الولادة، الطفل الذي يتنفّس الماء كل نهار، وكل ليلة، في مجرى كل أنهر العالم. ولمّا أبقت سورّو على مسافة من الفتاة الجديدة تماماً كما أبعدت عن باتريسيان، فإنها تصرفت إثر ذلك كما تفعل دائماً، بلا مبالاة هادئة حيال الجميع، ما عدا التوأم.

عندما جاء الحدّاد، بعد ذلك بسنوات، تغيّر مناخ المكان، إلى الأبد. لاحظت التوأم ذلك أوّلاً، قائلة إن لينا تخاف الحدّاد، وهي قد حاولت أن تُحذّر السيدة منه، لكن التحذير لم يؤتِ ثماره. لم تعره السيدة اهتماماً. فقد بلغت بها السعادة، لأن السيّد لم يعد يسافر، حداً لم تحترز معه. فهو موجود دائماً، يعمل في المنزل الجديد، ويدير عمليات التسليم، ويمدّ الخيوط من زاوية إلى زاوية، ويُجري حديثاً وثيقاً مع الحدّاد حول تصميم البوابة. ولينا مُسْتَهْوِلَة؛ والسيدة

تُهَمْهِمُ راضية؛ والسيّد منشرح الصدر. وكانت فلورنس، بالطبع، الأكثر ذهولاً.

لم تستقرّ لا سورّو ولا التوأم على النظرة المحدّدة إلى الحدّاد الذي بدا كاملاً، غير مدرك التأثير الذي يحدثه. أهو الخطر الذي رأته لينا فيه، أم أن خوفها غيرة فحسب؟ هل هو شريك البناء المثالي للسيّد، أم لعنة على فلورنس، مبدّلاً سلوكها من صريح إلى مخاتل؟ كان عليهما أن يعقدا العزم عندما انهارت سورّو على مقربة من موقع البناء، وهي عائدة من النهر بدلو من الماء، وقد أصابتها الحمّى والرجفة. وبمحض الصدفة، كان الحدّاد في ذلك المكان بالذات ورآها تسقط. رفعها ومدّدها على السرير الذي ينام عليه. أخذ وجه سورّو وذراعاها في الانتفاخ. لمس الحداد الدمامل في عنقها، ثم صاح. مدّ السيّد رأسه خارج إطار الباب وجاءت فلورنس راكضة. وصلت السيّدة وطلب الحدّاد الخلّ. ذهبت لينا لإحضاره، ولما عادت، بلّل به دمامل سورّو وبشرة وجهها وذراعيها، وجعلها تتشنّج من الوجع. وفي اللحظة التي كانت فيها النساء يشهقن والسيّد يقطب حاجبيه، حمّى الحداد سكيناً وشقّ واحداً من الأورام. راقبوا بصمت وهو يُنزل نقاطاً من دم سورّو بين شفتيها. فكّروا جميعهم في أنه من الأفضل عدم وجودها في المنزل، لذلك تمدّدت سورّو في أرجوحةٍ معلّقة طول النهار والليل وهي تلتهب حرارة. لم يُسمح لها بالطعام أو الشراب، في حين تناوبت النساء على تهوئتها بالمروحة. استدعى النسيم الدائم من مراوحهن رياح الأشرعة، والقبطان وذراع الدفة بيده. سمعته قبل أن تراه:

ضاحكاً، صاخباً، أجشّ. لا، ليس ضاحكاً، بل كان يصيح، إلى جانب الآخرين. كانت الصرخات بعيدة، عالية الطبقة وخافتة، في الجانب الآخر من الغيم الأبيض المحيط بها. والأحصنة أيضاً: حوافر تضرب، وقد تحرّرت من الأسفل. تقفز فوق أكياس الحبوب وترفس البراميل إلى أن تكسّرت دفّاتها وانسكب منها سائل قاتم سميك حلو. لم تتمكن، برغم ذلك، من التحرّك أو شق طريقها عبر الغيوم. دفعت، ودفعت، حتى وقعت على الأرض، في حين غطت الغيوم ذاتها وخنقتها، وقد أقنعتها بأن الصراخ هو صراخ النوارس. وعندما عادت إلى صحوها، استقبلتها عينان بشكل عينيها ولونهما. انجرفت الغيوم المنفوشة بعيداً، وقد أصبحت مجرد خيوط الآن.

«أنا هنا»، قالت الفتاة صاحبة الوجه المشابه تماماً لوجهها. «أنا دائماً هنا».

أصبحتُ أقل خوفاً بوجود التوأم، وشرعتا معاً في تفتيش السفينة الصامتة، المائلة إلى جانبها، ولم تجدا شيئاً سوى قبعة ونوارس تنقد بقايا فَلْوٍ.

تذكّرت سورّو، تحت المروحة المُلوّحة، كيف أنها تجمّدت، اليوم تلو الآخر، من البرد على السفينة، حيث لا شيء يتحرّك إلا الريح الجليدية. البحر عند مؤخرة السفينة، ومن الأمام شاطئ صخري تحت جرف من الحجارة والهشيم. لم يسبق لسورّو أبداً أن وطأت اليابسة، وقد أرعبتها مغادرة السفينة إلى الشاطئ. فهو غريب عنها غربة المحيط عن الخراف. إلا أن

التوأم جعلت الأمر ممكناً. لما نزلتا أصابتها اليابسة الخسيسة، القاسية، السميكة، البغيضة، بالصدمة. وعند ذاك فهمت قرار القبطان إبقاءها على متن السفينة. ربّاها ليس كابنة، بل كنوع من بحارة عتيدة. وهي وسخة، ترتدي سروالاً، همجية ومطيعة معاً، تمتلك مهارة مهمّة وحيدة، هي ترقيع أقمشة الشراع وخياطتها.

تشاجرت السيّدة ولينا مع الحدّاد في شأن هل يجب إكراهها على الأكل أو الشرب، لكنه تمكّن منهما، مُصراً على ألا تتناول شيئاً. أذعنتا وقد أخذتا بتلك السكّين الحامية وبدواء الدم. لم يسمح إلا بالتلويح بالمراوح وترطيب الدمامل وحسب. ومع نهاية اليوم الثالث، انكسرت حمّى سورّو وتوسّلت الماء. أمسك الحدّاد برأسها وهي ترتشف من قربة مصنوعة من قرعة مجففة. رفعت عينيها وشاهدت التوأم جالسة مبتسمة على الأغصان فوق الأرجوحة المعلّقة. وسرعان ما قالت سورّو إنها جائعة. وشيئاً فشيئاً، بعناية الحداد وعناية فلورنس، ذوت الدمامل، واختفى التورّم، واستعادت عافيتها. وها إن حكمهما بات الآن واضحاً: الحدّاد مخلّص. لكن لينا أصبحت كريهة فعلاً في محاولاتها إبقاء فلورنس بعيدة عن المريضة والشافي، متمتمة بأنه سبق لها وشاهدت هذا المرض وهي طفلة، وأنه سيمتد كالعفن إليهم جميعاً. لكنها خسرت المعركة مع فلورنس. ففي الوقت الذي استعادت فيه سورّو صحتها، كانت فلورنس قد أصيبت بمرض من نوع آخر، يدوم لفترة أطول، ويميت أكثر.

شاهدت سورّو للمرة الأولى الحداد وفلورنس ملتفّين على بعضهما، وهي مستلقية في المرجة عند طرف الغابة تستمع إلى التوأم تخبر قصتها المفضّلة التي تتحدّث عن رفٍّ من الأسماك، عيونها من اللؤلؤ وشعرها خصل من أعشاب البحر الخضراء والسوداء، وهي تسابق بعضها البعض وتمتطي صهوة أسطول من الحيتان. وكانت التوأم قد بلغت بالتحديد القسم الذي انضمت فيه طيور البحر، وقد استثارها الزبد المنسحب وراء الأسطول أشبه بالشهاب، إلى السباق، عندما وضعت سورّو إصبعها على شفتيها وأشارت بأخرى. توقفت التوأم عن الكلام وتطلّعت. الحداد وفلورنس يتأرجحان، وهي، على عكس أنثى حيوانات المزرعة في حالة النّزاء، لا تستلقي بهدوء تحت وزن الذكر أو دفعه الشديد. وما شاهدته سورّو هناك على العشب تحت شجرة الجوز الأبيض، ليس ما عرفته من صراخ هادئ للحركات المريبة وراء كومة من الأخشاب، أو ما جرى على عجل على أحد مقاعد الكنيسة. فالأنثى ها هنا تتمطّى، وتتقمّز كالفرس، وتدور برأسها يسرة ويمنة، إلى الأمام وإلى الوراء. الأمر أشبه بالرقص. تشقلبت فلورنس وفتلت من ظهرها إلى ظهره. رفعها وأسندها إلى شجرة الجوز. أحنت رأسها على كتفه. إنها لرقصة. أفقية مرّة، وعمودية مرة أخرى.

راقبت سورّو إلى أن انتهى الأمر، وارتديا ثيابهما وهما يتعثران مثل أناس عجّز مُتعبين. انتهى كل شيء عندما أمسك الحداد بشعر فلورنس، وجذب رأسها بسرعة إلى الوراء، ووضع فمه على فمها، ثم رحلا كلّ في وجهته. دُهشت لرؤية ذلك.

ففي جميع الأعمال المريبة التي عرفتها، لم يقبّلها أحد على فمها، أبداً.

من الطبيعي، بعدما دُفن السيّد، وسقطت السيدة مريضة، أن يُرسَل في طلب الحداد، وقد جاء وحده. حدّق لبعض الوقت في المنزل الكبير الجديد قبل أن يترجّل، ثم نظر نظرة سريعة إلى بطن سورّو، ثم إلى عينيها، قبل أن يسلّمها اللجام، واستدار صوب لينا وقال: «خذيني إليها».

أسرعت سورّو عائدة بعد أن ربطت الحصان بقدر ما سمح لها وزنها بذلك، ودخلوا ثلاثتهم إلى المنزل. توقف، بعد أن استرعت انتباهه الرائحة، ثم نظر إلى قدر يخنة حبق الراعي والقطع الأخرى من نقيع لينا.

«كم مضى عليها في السرير؟».

«خمسة أيام»، أجابت لينا.

هَمْهَمَ ودخل غرفة نوم السيدة. راقبته لينا وسورّو من الباب وهو يجلس على عجزه إلى جانب سرير المريضة.

«شكراً على مجيئك»، همست السيدة. «أستجعلني أشرب من دمي؟ أخشى أنه لم يبقَ شيء منه. أي شيء لم يتلوّث».

ابتسم وربّت على وجهها.

سألت: «هل إنني أموت؟».

هزّ برأسه: «لا، السقم قد مات، وليس أنت».

أغمضت السيدة عينيها. وعندما فتحتهما، كانتا مقرّزتين، فجفّفتهما بمؤخرة يدها المضمّدة. شكرته مراراً وتكراراً، ثم طلبت من لينا أن تحضّر له ما يأكله. تبعته لينا عندما غادر الغرفة. وكذلك فعلت سورّو، لكن ليس قبل أن تلتفت إلى الوراء لإلقاء نظرة أخيرة. شاهدت السيدة تقذف بغطاء السرير وتنزل على ركبتيها. راقبتها سورّو وهي تستخدم أسنانها لحلّ الأربطة على يديها، ثم تجمع كفّيها معاً. ألقت سورّو نظرة سريعة حول الغرفة التي يُحظر في العادة عليها دخولها، ولاحظت كتل الشعر الملتصقة ببلل المخدة؛ ولاحظت أيضاً كم أن الباطنين الشاحبين لرجلي السيدة بدوَا عاجزين، وقد نتأتا من تحت طرف ثوب نومها. بدت، وهي على ركبتيها ورأسها منحنٍ، كأنها وحدها في العالم. وأدركت سورّو أن الخادمات، مهما بلغ عددهن، لن يحدثن فرقاً. فاهتمامهن وتكريس أنفسهن لن يشكّلا، بأي طريقة، فارقاً بالنسبة إليها. بالتالي، ليس للسيدة أحد على الإطلاق. في ما عدا الواحد الأحد الذي تهمس له: «شكراً لك يا ربِّ لنعمة الخلاص التي أظهرتها لي».

ابتعدت سورّو على رؤوس أصابعها، وخرجت إلى الساحة حيث محا الهواء المعطّر بالصنوبر رائحة غرفة المريضة. وفي مكان ما، أخذ طير نقّار الخشب في النقر. وعندما قفزت الأرانب البرّية إلى الرقعة المزروعة فجلاً، فكّرت سورّو في مطاردتها، لكنها عدلت عن ذلك وقد أنهكها وزنها. وجلست بدلاً من ذلك على العشب في ظلّ المنزل، وهي تربّت على التحركات في بطنها الناتئ. أمكنها، عبر نافذة المطبخ من

فوقها، سماع طرطقة السكّين، وزحزحة الكوب أو الطبق في حين انهمك الحدّاد في الأكل. علمت بأن لينا هناك أيضاً، لكنها لم تتكلّم إلا عندما أعلن صوت زحزحة الكرسي، أن الحدّاد قد نهض. ثم طرحت لينا السؤال الذي لم تطرحه السيدة.

«أين هي؟ أهي بخير؟».

«بالتأكيد».

«متى ستعود؟ من سيعيدها؟».

حلّ صمت طويل جداً على لينا.

«مضى على الأمر أربعة أيام الآن. لا يمكنك أن تُبقيها رغماً عن إرادتها».

«ولماذا أفعل؟».

«إذاً، قل لي!».

«ستعود عندما يناسبها ذلك».

صمت.

«هل ستبيت الليلة هنا؟».

«جزء منها. أشكرك كثيراً على وجبة الطعام».

في تلك اللحظة غادر ماراً بسورّو، وردّ على ابتسامتها بمثلها، ثم صعد المرتفع المؤدي إلى المنزل الجديد. طرق ببطء على البوّابة الحديدية. اتحناءة من هنا، ووصلة من هناك، واختبر الطلاء بحثاً عن تقشيرات فيه. ثم مضى إلى قبر السيد

ووقف أمامه وقد رفع قبعته. وتوجّه بعد فترة إلى داخل المنزل الفارغ، وأقفل الباب وراءه.

لم ينتظر شروق الشمس. وقفت سورّو، المؤرّقة والمُتعبة، عند المدخل وراقبته يغادر ممتطياً ظلمة ما قبل الفجر وهو مبتهج بسكينة كالمهر. لكن، سرعان ما اتضح أن لينا لا تزال في حالة يائسة. فالأسئلة التي تزعجها سكنت في عينيها: ما الذي يحصل حقيقة لفلورنس؟ هل ستعود؟ هل الحدّاد صادق؟ وتساءلت سورّو إنها كانت مخطئة في شأنه، وهل لينا مُحقّة طوال الوقت برغم لطفه وقدرته على الشفاء. شكّت سورّو في ذلك وقد فاضت بالفراسة التي تدعي الأمهات العتيدات امتلاكها. فهو قد أنقذ حياتها بالخلّ وبدمها؛ وقد عرف فوراً حالة السيدة والمحلول الذي يجب وصفه للتخفيف من الندوب. فلينا تحذر وحسب من أي شخص يقف بينها وبين فلورنس. وليس للينا ما بين تعهّد المتطلبات الجديدة للسيدة وتسريح نظرها في الطريق ترقباً لفلورنس، الكثير من الوقت أو الميل إلى أي شيء آخر. ويقع اللوم بالدرجة ذاتها على سورّو لما يحصل في المزرعة، لكونها غير قادرة على الانحناء، أو على رفع أي شيء ثقيل، أو حتى على السير لمئة ياردة بدون أن ينقطع نفسها. سرّحت الماعز من رحاب القرية، واقتلعت الحديقتين المزروعتين حديثاً. طافت طبقات من الحشرات في برميل الماء الذي لم يتذكّر أحد أن يغطّيه. وبدأت الثياب المغسولة الرطبة التي تُركت لفترة طويلة جداً في السلّة، في التعفّن، ولم تعد أي منهن إلى النهر لغسلها من جديد. اختلّ كل شيء. أصبح الطقس حاراً، ولم تلد أي

بقرة بسبب إلغاء زيارة ثور الجار. احتاج الكثير من القدادين إلى قلب تربتها؛ وتخثّر الحليب في الوعاء. ضرب ثعلب بمخلبه حظيرة الدجاج كلّما ارتأى ذلك، وأكلت الجرذان البيض. ولن تُشفى السيدة بالسرعة اللازمة للسيطرة على الفوضى التي تسقط فيها المزرعة. ولينا، التي تتحمل معظم أعباء العمل بصمت، بدت، بدون مُدلّلتها، كأنها فقدت الاهتمام بكل شيء، بما في ذلك إطعام نفسها. عشرة أيام من الإهمال، وها إن الانهيار يعمّ في كل مكان. وهكذا، فإنه، في صمت بعد ظهر أحد أيام شهر أيار/مايو الباردة، في مزرعة مُهمَلة ضربها أخيراً مرض الجدري، تمزّق جيب ماء سورّو وأفلت ذعرها. فالسيدة ليست على ما يكفي من الصحة لمساعدتها، كما أنها، وقد استذكرت التثاؤب، لا تثق بلينا. ولم يعد لديها، بعدما مُنعت من دخول القرية، من خيار. فالتوأم غائبة، صامتة في شكل مثير للاستغراب، أو معادية بعدما حاولت سورّو أن تناقش معها ماذا تفعل أو إلى أين تذهب. حداها أمل ضعيف في أن ويل وسكالي موجودان كالعادة على طوف الصيد التابع لهما، فأخذت سكيناً وغطاءً إلى ضفة النهر في اللحظة التي شعرت فيها بأول الآلام. بقيت هناك، وحدها، تزعق عندما تضطر إلى ذلك، وتغفو بين فترتين حتى التمزق القاسي التالي للجسم والنفس. ساعات، دقائق، أيام. لم تتمكن سورّو من القول كم مضى من الوقت قبل أن يسمع الرجلان أنينها ويوجّها الطوف صوب حافة النهر. أدرك كلاهما بلوى سورّو بالسرعة ذاتها التي يدركان فيها بلوى أي حيوان على وشك الوضع. شرعا في

العمل، وهما أخرقان بعض الشيء، وتقتصر غايتهما على نجاة المولود الجديد. ركعا في الماء بينما كانت سورّو تدفع، وهما يسحبان، ويرخيان ويفتلان الشكل الصغير العالق بين ساقيها. تموّر الدم وغيره في النهر مجتذباً سمك البَقْلَة الصغير. وعندما شرعت الطفلة الأنثى بالبكاء، قطع سكالي حبل السرّة بالسكين، ثم سلّمها إلى أمها التي شطّفتها، ومسحت بضربات خفيفة فمها وأذنيها وعينيها غير المركّزتين. هنأ الرجلان نفسيهما وعرضا نقل المرأة والطفلة للعودة إلى بيت المزرعة. رفضت سورّو، وهي تكرّر «شكراً» مع كل نَفَس. أرادت أن تستريح وتشق طريقها بنفسها. صفع ويلارد سكالي على قفا رأسه ضاحكاً.

«يا لك من قابلة قانونية جيّدة».

«لا شك بذلك»، أجاب سكالي وهما يخوضان الماء عائدين إلى طوفهما.

بُعيد إخراج الطلق، لفّت سورّو طفلتها بالغطاء وغفت على نحو متقطع لساعات. وعند حدّ ما، قبل غياب الشمس، استيقظت على البكاء، فعصرت ثدييها إلى أن خرج من أحدهما الحليب. صحيح أن الرجال هم الذين أنقذوها طوال حياتها - القبطان، ابني النشّار، السيدة، والآن ويل وسكالي - لكنها مقتنعة بأنها قامت هذه المرّة، وحدها، بشيء مهم. وبالكاد لاحظت غياب التوأم وهي تركّز على ابنتها. وعرفت على الفور ماذا تسميها. عرفت ماذا تسمي نفسها.

مرّ يومان. أخفت لينا نفورها من سورّو وقلقها على فلورنس

تحت قناع من الهدوء. لم تقل السيّدة شيئاً عن الوليدة، لكنها بعثت في طلب الكتاب المقدس ومنعت أياً كان من دخول المنزل الجديد. عند حدّ ما، تجرأت سورّو بما يكفي، وقد دفعتها إلى ذلك شرعية وضعها الجديد كأم، على أن تقول لسيدتها: «شيء جيّد أن الحدّاد جاء لمساعدتك عندما كنتِ على وشك الموت». حدّقت فيها السيدة وأجابت: «هراء. وحده الله يشفي. ليس لإنسان مثل هذه القدرة».

لطالما تشابكت الخيوط بينهن، لكنها انقطعت الآن. وضعت كل امرأة حظراً على نفسها؛ وحاكت كل واحدة نسيج أفكارها في شكل غير متوفّر لأحد. بدا الأمر كأنهن، مع فلورنس أو بدونها، يبتعدن عن بعضهن البعض.

رحلت التوأم، ولم تترك أثراً، ولم تفتقدها الإنسانة الوحيدة التي عرفتها. توقفت تسكّع سورّو أيضاً. ها إنها تنتبه الآن إلى واجباتها اليومية، وتنظمها بحسب احتياجات طفلتها، ولا تتأثر مطلقاً بشكاوى الأخريات. نظرت إلى عيني ابنتها. رأت فيهما لمعان بحر شتائي رمادي وإبحار سفينة في الجانب البعيد عن مهب الريح. «أنا أمّك»، قالت. «اسمي كومبليت (كاملة)».

رحلتي إليكَ شاقة وطويلة، لكن مشقّتها زالت ما إن رأيت الباحة، والكير، والكوخ الذي أنت فيه. زال خوفي من ألّا أتمكن أبداً مرة جديدة، في هذا العالم، من رؤية ابتسامتك المُرحّبة أو طعم سكّر كتفيك وأنت تأخذني بين ذراعيك. جعلتني رائحة النار والرماد أرتعد، لكن البهجة في عينيك هي التي أزاحت قلبي من مكانه. تسألني كيف، ومنذ متى، وتضحك على ملابسي والخدوش في كل مكان من جسمي. لكنك قطبت جبينك عندما أجبتك عن السبب. اتفقنا على أن تقوم أنت بالأمر، وقد وافقتُ لأنه ما من سبيل آخر. ستركب فوراً إلى السيّدة، لكن وحدك. تقول إنه عليّ الانتظار هنا. لا يمكنني الانضمام إليك لأن الأمر أسرع بدوني. أدرتَ رأسك. تبِعَتْك عيناي إلى حيث تنظر.

حدث هذا مرتين من قبل. في المرّة الأولى، كنت أنا أسترق النظر من حول فستان أمي، آملة الإمساك بيدها المخصّصة فقط لابنها الصغير. تعلّق الأمر في المرة الثانية بفتاة صغيرة تشير صارخة وهي تختبئ وراء أمها متمسّكة بأهدابها.

وكانت المرّتان مشبعتين بالخطر، وقد تم طردي. وها أنا أرى صبياً صغيراً يأتي ممسكاً بدمية مصنوعة من قشر الذُّرة. إنه أصغر من كل من أعرفهم. مددت سبابتك نحوه فأمسك بها. تقول لي إن هذا هو السبب في عدم استطاعتي السفر معك. لا يجب ترك طفلك، الذي أسميته ملايك، وحده. إنه لقيط. فقد استلقى والده فوق الرسن في حين استمر الحصان في التقدّم إلى أن توقّف وأخذ يرعى الحشيش في المسرب. جاء أناس من القرية وعرفوا أنه مات ووجدوا الصبي يجلس بهدوء في العربة. لم يعرف أحد هوية الميت، ولم يمكن أن يُفصح عنها أي شيء في حاجاته التي وجدوها. قبلتَ به إلى أن يوفّر له أحد سكان البلدة أو قضاتها مأوى في المستقبل، وهو ما قد لا يحصل أبداً. ومع أن بشرة الرجل الميت وردية، فإن سحنة الصبي ليست كذلك. وبالتالي، فربما هو ليس ابناً له على الإطلاق. جفّ حلقي وأنا أتساءل إن كنت تريده أن يكون ابناً لك.

أصابني القلق بينما كان الصبي يتقدّم مقترباً أكثر إليك، كيف قدّمت إليه سبابتك وامتلكها، كما لو أنه هو مستقبلك ولست أنا. لم يعجبني كيف أصبحت عيناه وأنت ترسله للعب في الباحة، ثم إنك غسلت عندها سَفْرتي عن وجهي وذراعي، وقدّمت إليّ يخنةً ينقصها الملح، وقطع لحم أرنب سميكة وطريّة. جوعي كبير، لكن سعادتي أكبر، فلم استطع أكل الكثير. تحدّثنا في أمور كثيرة، ولم أفصح عمّا أفكّر فيه: سأبقى، وعندما تعود من معالجة السيدة، سواء أكانت حيّة أم لا، سأبقى هنا معك على الدوام. لن أبقى أبداً بدونك. فأنا لست هنا من

يُلقى بها بعيداً. لا أحد يسرق دفئي وحذائي لأنني صغيرة. لا أحد يضربني على قفاي، ولا أحد يُهَمْهِمُ كالخروف أو يثغو كالماعز لأنني سقطت خوفاً وضعفاً. لا أحد يصرخ لمرآي، ولا أحد يراقب عدم لياقة جسدي. فمعك جسدي لذيذٌ، وآمنٌ، ومنتمٍ. لن يمكنني أبداً إلاّ أن أجعلك تمتلكني.

كنتُ هادئة عندما غادرتَ مع أنك لم تمسّني عن قرب، أو تضع فمك على فمي. امتطيتَ الحصان وطلبت مني أن أروي شتلات الفاصولياء وأجمع البيض. ذهبتُ إلى هناك، لكن الدجاجات لم تفعل شيئاً، فعلمت بأن الأم التي لي ستأتي قريباً. الصبي ملايك على مقربة، ينام وراء الباب حيث تنام أنت. أنا هادئة، وساكنة، ومدركة أنك ستعود إلى هنا قريباً جداً. خلعتُ جزمة السيّد وتمددت على سريرك الصغير لألتقط رائحتك النارية. اخترقت أشعة ضوء السماء درف الشبابيك. استندت الأم التي لي إلى الباب، ممسكة بيد صبيها الصغير، وحذائي في جيبها. وهي كالعادة تحاول أن تقول لي شيئاً. سألتها الرحيل، ولمّا تلاشت سمعت صريراً خفيفاً. عرفت في الظلمة أنه هناك. عيناه كبيرتان، متسائلاً وبارداً. نهضت للمجيء إليه وسؤاله ماذا. ماذا يا ملايك، ماذا. إنه صامت، لكن الحقد يضج في عينيه. يريدني أن أرحل. لا يمكن هذا أن يحصل. شعرت بانقباضة في داخلي. لا يمكن أن أطرد من جديد.

شاهدتُ حلماً ارتدّ عليّ: أنا راكعة على العشب الطري والبرسيم الأبيض ينبثق منه. ثمة رائحة لطيفة وأنا أقترب منحنيةً

لتنشّقها، لكن الأريج يختفي. لاحظت أنني عند حافة بحيرة، زرقتها أشد من زرقة السماء، أكثر من أي أزرق عرفته. أكثر من خرز لينا، أو من رؤوس الهندباء. وأنا أحبّه كثيراً، ولا يمكنني التوقّف. أريد أن أدفن وجهي عميقاً هناك. أريد ذلك. فما الذي يجعلني أتردد، ويمنعني من الحصول على ذلك الأزرق الجميل الذي أريد؟ حملت نفسي على الاقتراب أكثر. انحنيت وأنا أتمسك بالعشب للمحافظة على توازني. عشب لامع، طويل ورطب. شعرت على الفور، بالخوف لرؤيتي أن وجهي ليس هناك. لا يوجد أي شيء حيث يجب أن يكون وجهي. وضعت إصبعي في الماء وشاهدته يصنع حلقات. وضعت وجهي على مقربة كافية للشرب أو التقبيل، إلا أنه لا يوجد حتى ظلّ لي هناك. أين يختبئ؟ ولماذا يختبئ؟ سرعان ما ركعت الابنة جاين على مقربة مني. نظرت هي أيضاً في الماء: «آه، أيتها الغالية، لا عليك. ستعثرين عليه». سألت: «أين؟ أين وجهي؟» لكنها لم تعد إلى جانبي. وعندما أفقت وجدت الأم التي لي واقفة قرب سريرك، وهذه المرّة ملايك هو طفلها الصبي. يمسك بيدها، وهي تحرّك لي شفتيها، لكنها تمسك يد ملايك بيدها. خبأتُ رأسي في غطائك.

أعرف أنك ستأتي، لكن ها قد أتى الصباح وأنت لم تأتِ. طوال النهار، انتظرنا ملايك، لكنه بقي أبعد ما يكون عنّي. وأنا في الداخل، وأحياناً في الحديقة، لكن ليس أبداً في السكّة ذاتها معه. أهدّئ نفسي، لكنني ضائعة ومشتتة من الداخل، ولا أعرف كيف أكون. تتحرك الأحصنة في مرعى أحدهم في البعيد.

المهور غير مستقرّة على حوافرها، ولا تهدأ أبداً. تطلّعت إلى أن حَجَبَ السوادُ الشديد الرؤية. لم يراودني أي حلم تلك الليلة. والأم التي لي لم تأتِ. تمدّدتُ حيث تنام. وهناك، إلى جانب صوت هبوب الريح، سمعت ضربات قلبي. إنها أكثر ارتفاعاً من صوت الريح. تغادر رائحتك النارية السرير. وأتساءل إلى أين تذهب. سكنت الريح، وانضمت ضربات قلبي إلى وقع الفئران.

لم يكن الصبي هنا في الصباح، لكنني جهّزت عصيدة لاثنين. وها هو من جديد يقف في السكّة ممسكاً بقوة بدمية قشر الذُّرة، ومتطلّعاً صوب المكان الذي انطلقتَ منه. تذكّرتُ فجأة، بتطلّعي إليه، هيئة الكلب المتصاعدة من إبريق الأرملة إيلينغ. لم أتمكّن حينذاك من قراءة كامل معناها، إلا أنني أعرف الآن كيف أفعل ذلك. أنا أحترس، وإلا فإنني أضيع كل إدراك لكيفية حماية نفسي. لاحظت في البدء اختفاء جزمة السيّد. بحثت في كل مكان. فتشت الكوخ، والكير، والرماد، وأنا أشعر بالألم في قدميّ الطريّتين. فقد حزّتهما قطع المعدن الصغيرة وكدمتهما. تطلّعت وشاهدت التواءة أفعى حديقة تتزحلق صوب عتبة الباب. راقبت زحفها البطيء إلى أن همد في ضوء الشمس. لمستُ سندانك. إنه بارد وقد انجرد ناعماً، لكنه يغني الأجيج الذي يعيش من أجله. لم أعثر أبداً على جزمة السيّد. عدت، بحذر، على رؤوس أصابعي إلى الكوخ وانتظرت.

غادر الصبي السكّة. ولج إلى الداخل، لكنه لم يأكل أو

يتكلّم. حدّقنا إلى بعضنا البعض عبر الطاولة، فلم يرفّ له جفن، وأنا أيضاً. أعرف أنه سرق جزمة السيّد العائدة إليّ. تشبّثتْ أصابعه بالدمية. أعتقدُ أنها مكمن قوته. أخذتها منه ووضعتها على رفّ أعلى من قدرته على بلوغها. صرخ، وصرخ، وانسابت دموعه. أسرعتُ خارجةً على قدميّ النازفتين حتى لا أسمع، وهو لا يتوقّف. مرّت عربة بالمكان، واستَرَقَ الزوجان اللذان على متنها النظر لكنهما لم يوجّها التحيّة أو يتوقّفا. صمت الصبي في النهاية وعدتُ إلى الداخل. لم تعد الدمية على الرف. فهي متروكة في إحدى الزوايا أشبه بطفل عزيز لا يريده أحد. ربما تجلس الدمية هناك مختبئة؛ مختبئة منّي. خائفة. فأيهما؟ أيهما هي القراءة الصحيحة؟ العصيدة تقطر من الطاولة. الكرسي إلى جانبه. عاود الصبي الصراخ لرؤيتي. أمسكته عندها بقوّة. حاولت إسكاته وليس إيذاءه. لهذا جذبت يده لجعله يتوقف. ليوقف ذلك. وقد سمعت، نعم، الكتف تطق، لكن الصوت ضعيف، ليس أعلى من الطقّة التي يحدثها جناح حجل الثلوج عندما تملخه عن صدره وهو ساخن وطريّ. صرخ، وصرخ، ثم أغمي عليه. خرج بعض الدم من فمه الذي اصطدم بزاوية الطاولة. القليل منه فقط. سقط مغشياً عليه تماماً في الوقت الذي سمعتك فيه تنادي. لم أسمع حصانك، بل صياحك وحسب، وأدركت أنني هالكة لأنك لم تنادِ باسمي، ليس اسمي، بل اسمه. ملايك، صحتَ: ملايك.

اضطرب وجهك لرؤيتك إيّاه ساكناً وخائراً مع نطفة الدم تلك من فمه. ضربتني وأبعدتني صارخاً: ما الذي تفعلينه؟ أين

رحمتكِ؟ ورفعتَ الصبي بقدر كبير من الحنان. ولما رأيت زاوية ذراعه، بكيتَ. فتح الصبي عينيه ثم أغمي عليه من جديد لمّا فتلتها وأعدتها إلى مكانها الصحيح. نعم، يوجد دم. القليل منه. لكنّك لم تكن موجوداً عندما سال، فكيف يمكنك أن تعرف أنني السبب؟ لماذا تضربني لتبعدني دون أن تتأكد من الحقيقة؟ رأيتَ الصبي وفكّرتَ فيَّ بسوء بدون سؤال. أنت مصيب، لكن، لماذا لم تسأل؟ فأنا أول من يتعرّض للضرب. ضربتني بقفا يدك على وجهي. سقطتُ والتويت على الأرض، متوتّرة. لا ريب في الأمر. فأنت قد اخترت الصبي. ناديت باسمه أوّلاً. أخذتَه ليتمدّد مع الدمية وعدتَ إليّ بوجهك المضطرب، وبعينيك الخاليتين من البهجة، وانتفخت شرايين عنقك كالحبال. أنا هالكة. لا كلمة أسف لطرحك إيّاي أرضاً. لا أصابع رقيقة تلمسني حيث أذيتني. تكوّرتُ على نفسي خوفاً، أنزلت الريش الذي أخذ في الارتفاع.

قلتَ، سيّدتُك تتماثل إلى الشفاء، وسمعتك تقول إنك ستستخدم شخصاً لأخذي إليها، بعيداً عنك. وكل كلمة تبعت ذلك كانت جارحة.

سألتك: لماذا تؤذيني.

أريدكِ أن ترحلي.

دعني أشرح.

كلا، ليس الآن.

لماذا؟ لماذا؟

لأنك عبدة؟

ماذا؟

سمعتِني.

السيّد هو الذي جعلني كذلك.

لا أقصده هو.

من إذاً؟

أنت.

ماذا تعني؟ أنا عبدة لأن السيّد اشتراني.

لا، لقد أصبحتِ واحدة.

كيف؟

رأسكِ فارغٌ وجسدكِ فاجر.

أنا أعبدك.

وأنتِ عبدة لذلك أيضاً.

أنت وحدك تملكني.

امتلكي نفسك، يا امرأة، ودعينا وشأننا. أوشكتِ أن تقتلي هذا الطفل.

لا، انتظر. أنت تعذّبني.

أنتِ لا شيء سوى أرض جدباء. لا كبح لجماح النفس ولا عقل.

صحتَ بكلمة «عقل، عقل، عقل»، المرّة تلو المرّة، ثم ضحكتَ قائلاً إنني أعيشُ وأتنفّسُ، وقد اخترتُ أن أكون عبدة.

مددتُ يدي إليك. زحفتُ إليك. تراجعتَ قائلاً: ارحلي عنّي.

صُدمتُ. أتقول إنني لا شيء بالنسبة إليك؟ ولا أهمّية لي في عالمك؟ ولم تعثر على وجهي الضائع في المياه الزرقاء إلا لتسحقه؟ ها أنا أعيش الآن الموت من داخل. لا، ليس من جديد. ليس أبداً. ارتفع الريش الذي بَسَطْتُه. خرّشت المخالب وخرّشتُ إلى أن أصبحت المطرقة في يدي.

تسلّق جاكوب فارك خارجاً من قبره لزيارة منزله الجميل.

«كما يجب عليه أن يفعل»، قال ويلارد.

«وأنا متأكد من أنه سيفعل»، أجاب سكالي.

لا يزال المنزل الأعظم في المنطقة بأسرها، فلماذا لا يُمضي فيه الأبدية؟ عندما لاحظ الظلّ في البداية، لم يتأكد سكالي من أنه فارك حقاً، وظن أن عليهما الزحف إلى مكان أقرب. لكن ويلارد، العارف بالأرواح، حذره من مغبة إزعاج الموتى المنبعثين. وراقبا، ليلة بعد ليلة، إلى أن أقنعا نفسيهما بأن لا أحد غير جاكوب فارك سيمضي الزمن ساكناً هناك: فليس للمنزل أصحاب سابقون، والسيّدة منعت أياً كان من الدخول إليه. احترم الرجلان منطق السيّدة الفكري، ولو أنهما لم يفهماه.

شكّل سكان المزرعة المجاورة طوال سنوات أقرب ما يكون إلى العائلة التي عرفها أي من الرجلين. زوجان طيّبا القلب (الأهل)، وثلاث خادمات (لنَقُل شقيقات)، وهما الابنان

المساعدان. يمكن الاتكال على جميع الأفراد، وهم لطفاء غير قساة، وخصوصاً السيّد الذي، على العكس من مالكهما الغائب دوماً تقريباً، لم يشتمهما أبداً أو يهددهما، بل قدّم إليهما هدايا من الروم في موسم عيد الميلاد، وقد شاركهما في إحدى المرات المعاقرة من الزجاجة مباشرة. أحزنهما موته إلى درجة عصيان أمر مالكهما بتحاشي المكان المصاب بالجدري. تطوّعا لحفر القبر الأخير، ولو أنه ليس النهائي، الذي طلبته أرملته. أزالوا، تحت وابل من المطر، خمس أقدام من الوحل، وسارعا إلى إنزال الجثة قبل أن تمتلئ الحفرة بالماء. وها إن الرجل الميت يغادرها، بعد ذلك بثلاثة عشر يوماً، وقد هرب من قبره الخاص. الأمر أشبه كثيراً بالطريقة التي اعتاد الظهور بها من جديد بعد أسابيع من السفر. لم يرياه، ولم يعرفا لا شكله النهائي أو وجهه، بل شاهدا نوره الروحي بدأ سطوعه قرابة منتصف الليل. طاف لبعض الوقت في الطابق الثاني. اختفى، ثم تحرّك ببطء شديد من نافذة إلى أخرى. ومع اكتفاء السيّد بالتجوال في منزله وعدم الظهور في أي مكان آخر، مخيفاً أو مزعجاً أحداً، شعر ويلارد بأنّ من الآمن والمناسب له ولسكالي، أن يظلا مخلصين ويساعدا السيّدة على إصلاح المزرعة، وتحضيرها أيضاً، لأنها أهملت كثيراً بُعيد مرضها. أصبح حزيران/يونيو على الأبواب، ولم يُحرث أي ثلم. وكانت الشلنات التي عرضتها عليهما، أول ما سبق لهما أن تقاضياه، ورفع عملهما من الوظيفة إلى التكرّس، ومن الشفقة إلى المكسب.

ثمة الكثير مما يجب القيام به، لأن النساء، برغم الجَلَد الذي طالما تمتعن به، بَدَوْنَ الآن ذاهلات، وأكثر بطئاً. قبل أن يشفي الحداد السيّدة ويعده، وعودة الفتاة، فلورنس، إلى حيث تنتمي، كان التابوت قد أُنزل. وبرغم ذلك، قال ويلارد، واصلت لينا القيام بعملها بعناية وهدوء، لكن سكالي خالفه الرأي، وقال إنها في حالة غليان، مثل التفاح الأخضر المرتعش في الماء المغلية لفترة طويلة جداً، وقد أوشكت قشرتها على التمزق، وباتت في حاجة إلى سحبها سريعاً وتبريدها قبل هرسها إلى صلصة. ويعرف سكالي ذلك لأنه أهدر ساعات كثيرة على مر السنين يراقبها سرّاً وهي تستحم في النهر. لم تعد متوفّرة تلك السحنات الطليقة إلى إليتيها، وخصرها، وذينك النهدين بلون شراب السكر. افتقد أكثر ما افتقد ما لم يره أبداً في أي مكان آخر: شعراً نسائياً غير مقصّص، عارماً، مغوياً، أسود كالسحر. شكلت رؤيته رطباً يلتصق ويتمايل على ظهرها، سعادة كبيرة. وهذا لم يعد يحصل الآن. فهو مقتنع، في كل مرة تستحم، هذا إذا فعلت، بأنها على وشك الانفجار.

تبدّلت السيّدة أيضاً. والسبب كما قال ويلارد، هو الحداد والمرض. وتأثير ذلك كلّه واضح كضوء النهار. فشعرها - بالخصل النحاسية الصفراء التي رفضت قبّعتها في السابق - أصبح خيوطاً باهتة تهيم على صدغيها، وتزيد ملامحها الكالحة حديثاً بالكثير من الكآبة. استعادت السيطرة، بعد نهوضها عن سرير المرض، إلا أنها تفادت المهام المتعبة التي تعودت الاضطلاع بها بمتعة. فهي لم تغسل وتكوِ أي قطعة ثياب، ولم

تزرع أي نبتة، ولم تقتلع العشب أبداً. طبخت وأصلحت. وفي ما عدا ذلك، قضت وقتها في قراءة الكتاب المقدّس، أو في استضافة شخص أو شخصين من القرية.

«أظن أنها ستتزوج من جديد وقريباً»، قال ويلارد.

«لماذا قريباً؟».

«إنها امرأة، فكيف تحافظ بغير ذلك على المزرعة؟».

«بمن؟».

أغمض ويلارد عيناً واحدة. «ستوفّر القرية واحداً»، ثم سعل ضاحكاً مستذكراً حسن استقبال الشمّاس.

وحده التغيير الذي أصاب سورّو بدا لهما أنه تحسن. أصبح ذهنها أقل تشوّشاً، وصارت أكثر قدرة على تنفيذ الأشغال، إلا أن طفلها احتل المقام الأول، فكانت تؤجّل جمع البيض، وتؤخّر الحلب، وتقطع أي عمل في الحقل إذا سمعت أي أنين من الطفل الموجود دوماً في مكان قريب منها. وادعيا لنفسيهما، لكونهما ساعدا في ولادة الطفل، صفة العرابين، حتى أنهما عرضا الاهتمام بالطفل إذا احتاجت إليهما سورّو أن يفعلا ذلك. لكنها رفضت، ليس لأنها لا تثق بهما، وهي تثق، بل احتياجاً منها إلى الثقة بنفسها.

فلورنس كانت الأكثر غرابة. تحولت المخلوقة الوديعة التي عرفاها إلى متوحّشة. عندما شاهداها على الطريق مثقلة الخطى بعد يومين من زيارة الحدّاد للسيدة المريضة وذهابه، تأخرا في

التعرّف إليها على أنها كائن حيّ. أولاً، لأنها كانت ملطّخة كثيراً بالدماء، وثانياً لأنها مرّت بهما مرور الكرام. ولا شك في أن الظهور المفاجئ لرجلين متعرّقين من بين أشجار في جانب الطريق، يروّع أي شخص، وبخاصة الأنثى من البشر. لكنها لم تلتفت صوبهما أو تغيّر من معدّل سرعة سيرها. كان الرجلان المقطوعا النفس لا يزالان مرتاعين بعد نجاتهما بشق النفس، فقفزا مبتعدين عن مسارها. يمكن، في ذهنهما المرتعب، لأي شيء أن يكون أي شيء. ركضا بأسرع ما أمكنهما عائدين إلى الأنعام التي في عهدتهما قبل أن تأكل الخنازير البرّية صغارها. فقد أمضيا معظم النهار مختبئين من دبّ مهان، وهي حادثة مرعبة اتفقا على أنها في الأساس خطأ ويلارد. شكّلت الحجال التي تم اصطيادها بالشباك والمتدلّية على خصر الرجل الأكبر سناً، زاداً كافياً لإعداد وجبتين لكل منهما. وقد تهوّرا في الضغط على حظهما الجيّد والتلكّؤ، بحيث يمكنه الراحة تحت إحدى أشجار الزان والنفخ في غليونه. عرف كلاهما ماذا يمكن أن تفعل نفخة دخان في غابات، الرائحةُ حاسمةٌ فيها: للهرب، أو الهجوم، أو الاختباء، أو الاستقصاء، كما في حالة الدبّة. وعندما استعرت فجأة أغصان الغار التي حملت الحجال وأحدثت دوياً، نهض ويلارد، ماداً يده إلى سكالي لإسكاته. لمس سكالي سكينه ووقف أيضاً. بعد لحظة من الهدوء الموحش - لا نداءات طيور ولا ثرثرات سناجب - غمرتهما الرائحة في اللحظة ذاتها التي اخترقت فيها الدبة أغصان الغار وأسنانها تصطك. افترقا، لعدم معرفتهما من منهما ستختاره،

وركض كل من الرجلين آملاً أنه قام بالخيار الصحيح، لأن التناوم ليس خياراً. انحنى ويلارد وراء نتوء أرضي، كبس بإبهامه على الغليون، وصلّى بأن تعطّل حافة صخر الأردواز اتجاه الريح. قفز سكالي، الذي تيقّن من أنه شعر بالنفس الحار على مؤخرة عنقه، إلى أدنى غصن وتأرجح صعوداً عليه. وكان هذا يُعتبر تصرّفاً غير حكيم. لم يكن على الدبة، وهي من الحيوانات التي تتسلق الأشجار، إلا أن تقف لتضغط على قدمه بفكّيها. لكن خوف سكالي لم يجعله يتراجع، فقرر القيام بحركة دفاعية قوية واحدة على الأقل مهما كانت يائسة. انتشل سكينه، واستدار، وبدون أن يصوّب، غرزها بشدّة في رأس الكائن الرشيق الضخم من تحته. شكّل اليأس عطيّة هذه المرّة، وأصابت الشفرة عين الدبة ودخلت فيها مثل الإبرة. كان الزئير رهيباً وهي متمسكة بقشرة الشجرة بمخالبها، وتسقط على الأرض على عجزها. لم يكن لحلقة من الكلاب النابحة أن تثير حنقها أكثر. زمجرت، وانتصبت واقفة، وضربت على الشفرة العالقة إلى أن سقطت، ثم نزلت على أربعتها وأدارت كتفيها وحرّكت رأسها من ناحية إلى أختها. بدا لسكالي أن وقتاً طويلاً جداً قد مرّ قبل أن تلفت الانتباه همهمة جروها، فتثاقلت في سيرها مبتعدة لتحديد مكان صغيرها وقد فقدت توازنها بسبب الإغماء الذي خفف من قدرتها الطبيعية الضعيفة على الإبصار. انتظر سكالي وويلارد، أحدهما متعلّق بالشجرة أشبه بالدبة العالقة ذاتها، والآخر معانق الصخرة، وكلاهما متخوف من أنها قد تعود. ولما اقتنعا في النهاية بأنها لن تفعل، عاودا الظهور

بعدما شمشما بحذر بحثاً عن رائحة الفرو، وأنصتا إلى سماع همهمة أو حركة أخرى، أو عودة نداءات الطيور. عاودا الظهور رويداً رويداً، ثم جريا بسرعة. وعند اندفاعهما من الغابة إلى الطريق، شاهدا الشكل الذي يشبه الأنثى يسير في اتجاههما. وقرر سكالي، عندما ناقشا الأمر لاحقاً، أنها لم تكن في جولة تفقدية بقدر ما كانت مقاتِلة جريحة، حافية القدمين، مدمّاة، ولكن فخورة.

توقّع ويلارد الشاب، الذي بيع إلى مُزارع فيرجيني لمدة سبع سنوات، أن يُحرّر في سن الحادية والعشرين، لكن أضيفت ثلاث سنوات أخرى إلى مدّته لخرقه القانون - سرقة واعتداء- وتمت إعادة تأجيره إلى مزارع قمح في الشمال البعيد. وبعد حصادَين، تلف موسم القمح تحت تأثير العاصفة، فحوّل المالك ملكيته إلى مزرعة أنعام مختلطة. تطلبت المبالغة في الرعي مزيداً من المرعى، فأجرى المالك صفقةَ أرض في مقابل اليد العاملة مع جاره، جاكوب فارك. لكن لا يمكن أن يُعنى رجل واحد بكل تلك الأنعام. وقد ساعد في ذلك إضافة صبي آخر.

عانى ويلارد، قبل وصول سكالي، أياماً قاسية ووحيدة يراقب المواشي تمضغ وتتناسل. وكان عزاؤه الوحيد هو في تذكّر الأيام الأكثر صعوبة، والأكثر إرضاءً في فرجينيا. لم تكن تلك الأيام عديمة الطعم، برغم قساوة العمل، والتمتع بالصحبة. فهو هناك واحد من ثلاثة وعشرين رجلاً يعملون في حقول التبغ. ستة إنكليز، وواحد من سكان البلاد الأصليين، واثنا عشر من أفريقيا جاؤوا عن طريق باربادوس، ولا نساء في أي مكان.

أحكم حسنَ الرفقة بينهم كرهُهم المشترك للمشرف ولابن السيّد الكريه، الذي تعرض للاعتداء. تم اختراع سرقة الخنزير الصغير المفطوم، وأضيفت فقط لزيادة مديونية ويلارد. واجه صعوبة في التعوّد على المنطقة الأكثر قساوة وبرودة التي نُقل إليها. وهو، ليلاً، في سريره، عالق في الظلمة الواسعة، الحيّة، يستجمع قواه في مواجهة الأحياء والأموات. يمكن لعينيْ أيّل متوقّدتين، أن تكونا شيطاناً، تماماً كما أن عويل الأرواح المعذّبة قد يكون عواء ذئاب سعيدة. استحوذ على نهاراته هول تلك الليالي الموحدة. وكانت الخنازير، والخراف، والماشية، رفيقته الوحيدة، إلى أن يعود مالكه ويشحن بالعربة أفضلها للذبح. استُقبلت عودة سكالي بالترحيب والارتياح. وعندما توسّعت مهامهما لتشمل مساعدة ظرفية في منزل فارك، وأنشأ علاقة سهلة مع سكانه، حصلت مرات قليلة أفرط فيها ويلارد في الشرب وأساء التصرّف. وكان، في البداية، قد هرب مرتين، وفي كل مرة كان يتم الإمساك به في باحة إحدى الحانات، ويضاف تمديد جديد إلى مدّته.

بدأ تحسّن كبير في حياته الاجتماعية، عندما قرر فارك بناء منزل عظيم. وها إنه، من جديد، واحد من فريق من العمّال المهرة وغير المهرة. وبمجيء الحداد أخذت الأمور تصبح أكثر وأكثر استثاراً للاهتمام. فالمنزل ليس كبيراً، ومحيطه ليس مؤثراً في النفس وحسب، بل إن بوابته رائعة المنظر أيضاً. أراد السيّد عملاً مبهرجاً على الصفيحتين كلتيهما، لكن الحداد أقنعه بأن لا. وجاءت النتيجة خطوطاً من القضبان العمودية بارتفاع ثلاث أقدام

يعلوها شكل هرمي، تؤدي بوضوح إلى البوابة التي تتوّج كل جانب منها مجموعةٌ من العرائش الكثيفة، أو هكذا اعتقد. لكنه رأى، بالنظر عن كثب، أن العرائش المذهبة هي في الواقع أفاع، بحراشيفها وكل شيء، لكنها لا تنتهي بالأنياب، بل بالأزهار. ولما تفتح البوابة تفصل كل واحدة فليجاتها عن الأخرى. ولما تغلق تندمج أزهارها.

أعجب بالحدّاد وحرفته. وهي وجهة نظر استمرّت إلى اليوم الذي رأى فيه المال ينتقل من يد فارك إلى يد الحداد. فرنّة الفضّة، كلمعانها، لا تخفى. عرف أن فارك يثرى من استثماراته في الروم، لكن معرفته أن الحداد يتقاضى المال لقاء عمله، مثل الرجال الذين سلّموا مواد البناء، وعلى عكس الذين عمل معهم في فرجينيا، جعل ويلارد يرفض، مشجّعاً في ذلك سكالي، كل ما طلبه الرجل الأسود. رفضا تقطيع الكستناء، وجرّ الفحم أو تشغيل الكير، ونسيا حماية ألواح الخشب الأخضر من المطر. عاقبهما فارك حتى قدّما المساعدة على مضض، لكن الحدّاد نفسه هو الذي هدّأ من روع ويلارد. امتلك ويلارد قميصين، واحداً ذا ياقة، والآخر أشبه بخرقة. وفي الصباح الذي زلّ فيه في الروث الطازج وتمزّق قميصه على طول ظهره، بدّله بذلك الذي له ياقة. وبوصوله إلى الموقع، لمح عيني الحداد، ثم هزّة رأسه، ثم إبهامه وهي ترتفع إلى أعلى كما لو أنها تعطي علامة الموافقة. لم يعرف ويلارد أبداً هل هو عرضة للاستهزاء، أم يُثنى عليه. لكن أطربه الأمر عندما قال الحداد «صباح الخير، أيها السيّد بوند». فوكلاء الأراضي في فرجينيا، ورجال الشرطة،

والأولاد الصغار، والمبشرون، لم يفكّر أي منهم أبداً في مناداته بالسيّد، كما أنه لم يتوقّع منهم أن يفعلوا. فهو يعرف مرتبته، لكنه لم يعرف ارتفاع المعنويات الذي تتيحه له مجاملة صغيرة. وسواء أكان الأمر مزحة أم لا، فهذه المرة الأولى لم تكن الأخيرة، لأن الحدّاد لم يكفّ أبداً عن التوجّه إليه بهذا الشكل. ومع أن وضعية الأفريقي الحر في مقابل وضعه لا تزال تحزّ في نفسه، إلا أنه لم يكن هناك ما يمكنه فعله في هذا الشأن. فلا يوجد قانون يحميهم من عقود العمل المجحفة في حقهم. لكن الحدّاد يتمتع بالسحر، وهو استمتع بالتالي بأن يدعوه السيّد. أدرك ويلارد، وهو يتضاحك في سرّه، لماذا صعق الرجلُ الفتاةَ، فلورنس. من المرجّح أنه دعاها بالآنسة أو بالسيدة عندما التقيا في الغابة لارتكاب الحماقة في وقت العشاء. فكّر في أن هذا كان ليثيرها لو أنها احتاجت إلى ما هو أكثر من ابتسامة الرجل الأسود.

قال لسكالي: «لم أرَ أبداً، في كل أيامي في هذه الدنيا، شيئاً مماثلاً. فهو يجامعها متى أراد وأينما شاء، وهي تطارده كالمستذئبة إن غاب عن عينيها. وإذا غاب في مشغل صهر الحديد ليوم أو يومين، فإنها تحرد إلى أن يعود جاراً الأزهار المعدنية. وهذا يجعل سورّو تبدو أشبه بأتباع طائفة الفرندز المسيحية».

لم يندهش سكالي، الذي يكبر فلورنس ببضع سنوات فقط، بالتغيير الحاد في مسلكها بالقدر الذي اندهش فيه ويلارد. اعتبر نفسه صاحب حكم ثاقب على الطباع. وشعر بأنه، على عكس

ويلارد، يمتلك غريزة بارعة وتخميناً أكيداً للكُنه الحقيقي للآخرين. فويلارد يحكم على الناس من مظهرهم، أما سكالي فينظر إلى ما هو أعمق. وهو، على الرغم من أنه استمرأ عري لينا، رأى طهارة فيها. يعتقد أن إخلاصها لا يشكّل خضوعاً للسيدة أو لفلورنس؛ بل هو إشارة إلى قيمتها الذاتية: نوع من التزام الشخص بكلمته. الشرف، ربما. وسكالي يفضّل سورّو على الخادمتين الأخريين، برغم انضمامه إلى ويلارد في السخرية منها. ولو أنه مهتم بالإغواء فسيقع اختياره عليها: سيماؤها المهيب، المعقّد، المجافي. والعينان اللتان لا ترفّان، بلونهما الدخاني الرمادي، ليستا فارغتين، بل منتظرتان. اعتقد الجميع، ما عداه، أنها بلهاء لأنها تتحدث بصوت مرتفع عندما تكون وحدها، ولكن من هو الذي لا يفعل؟ فويلارد يوجّه التحيات بانتظام إلى النعاج، والسيدة تعطي دوماً التوجيهات لنفسها وهي تقوم بمهمة منفردة. ولينا تردّ على الطيور كما لو أنها تطلب مشورتها حول كيفية الطيران. وبعزل سورّو، بوصفها «الواحدة الغريبة»، يتم تجاهل إدراكها السريع والعارف بموقعها. فخصوصيتها تحميها. وسهولة وصالها هديّة تقدّمها إلى نفسها. أشرقت وهي حامل، ولما حان وقتها بحثت عن المساعدة في المكان المناسب تماماً، ومن الشخصين المناسبين.

لو أنه مهتم بالاغتصاب لشكّلت فلورنس طريدته. فمن السهل معاينة تلك التركيبة من التقصير عن حماية النفس، وشدّة الرغبة في الإرضاء، وفوق ذلك كلّه الاستعداد للوم نفسها على دناءة الآخرين. ومن الواضح، من مظهرها الآن، أن ذلك لم يعد

صحيحاً. ففي اللحظة التي رآها فيها تمشي على الطريق - سواء أكانت شبحاً أم جندية - عرف أنها أصبحت لا تُمسّ. لكن تقديره قابليتها على اللااغتصاب كان موضوعياً. ففي ما عدا تسلّط مسألة الصبابة على جسد لينا، انتفى لدى سكالي أي اهتمام شهواني بالنساء. فقد طبعه منذ زمن بعيد عالم الرجال والرجال وحدهم، ولم يراوده أبداً أي شك، من اللحظة التي رأى فيها الرجل الأسود، في التأثير الذي سيكون لهذا الرجل في فلورنس. وبالتالي، فإن التغيير من «نَلْ منّي ساعة تود»، إلى «لا تمسّني أبداً»، بدا بالنسبة إليه مُتوقّعاً بالقدر الذي كان فيه متبيّناً.

كذلك، جاء رأي سكالي في السيدة أقل سخاء من رأي ويلارد. فهو لم ينفر منها، بل لم يَرَ في تصرّفها بعد وفاة السيّد وبعد شفائها، مفاعيل الصحة المتدهورة والحداد فحسب. فالسيدة أمضت أيامها بحبور الساعة، وهي تائبة، على نحو بسيط ومحض. وهو ما يعني، بالنسبة إليه، أنه يوجد تحت تقواها أمر بارد وقاسٍ أيضاً. بدا له أن رفضها الدخول إلى المنزل الكبير، الذي ابتهجت بتشييده، قصاص ليس لنفسها وحسب، بل للجميع أيضاً، ولزوجها الميت بنوع خاص. فها هي الآن تزدري بما استمتع به الزوج والزوجة، كلاهما، كمؤشرات على الخطيئتين الثالثة والسابعة. فمهما أحبّت الرجل في حياته، فقد عَصَفَ بها تركُها وراءه. فكيف لا تفتش عن طريقة ما لتنزل بعضاً من الانتقام، لتظهر له ماهية شعورها ومدى غضبها؟

شهد سكالي في أعوامه الاثنين والعشرين، من الحماقات الإنسانية أكثر مما شهده ويلارد. كان، لما أصبح في الثانية عشرة من العمر، قد تعلّم، على يد معاون كاهن أنغليكاني أحبّه وخانه. أجّره أبوه المزعوم للمجمع الكنسي بعد وفاة والدته على أرض الحانة التي عملت فيها. طالب صاحب الحانة سكالي بثلاث سنوات عملاً للإيفاء بدَينها، لكن «الأب» ظهر. دفع الرصيد المتوجب، وباع خدمات ابنه، إلى جانب برميلين من النبيذ الإسباني، للمجمع الكنسي.

لم يَلُمْ سكالي معاون الكاهن أبداً على الخيانة أو ما أعقبها من جَلْد، لأن معاون الكاهن اضطر إلى قلب ملابسات الإمساك بهما وردها إلى احتلام الصبي، وإلا فإنه لن يتعرض لتجريده من رتبته الكهنوتية فحسب، بل سيُصار إلى إعدامه أيضاً. اتفق الحكماء على أن الصبي أصغر من أن يكون غير قابل نهائياً للإصلاح، فحوّلوه إلى أحد ملاكي الأرض الذي احتاج إلى مساعد للعمل مع أحد الرعاة في مكان بعيد جداً. وهو منطقة ريفية، شبه مسكونة، حيث أملوا أن يصلح الصبي مسلكه، أو لن يحصل، في أسوأ الحالات، على فرصة إفساد الآخرين. تطلّع سكالي إلى الهرب ما إن وصل إلى المنطقة. ولكن في اليوم الثالث، هبّت عاصفة شتائية عنيفة جلّدت الأرض وغطتها بثلاث أقدام من الثلج. نفقت الأبقار واقفة، والتصقت الزرازير المغطاة بالجليد بالأغصان التي يتهدّل عليها الثلج. نام وويلارد في الاسطبل بين الخراف وبقية الماشية، تاركين تلك التي لم يمكنهما إنقاذها وحدها. هناك، في دفء الحيوانات، وجسماهما

ملتصقان ببعضهما، بدّل سكالي خططه ولم يمانع ويلارد أبداً. ومع أن الرجل الأكبر سناً يحب الشرب، فإن سكالي، الذي نام طوال طفولته تحت دقّة الحانة ورأى تأثير السُّكر في والدته، تفاداه. قرّر، نظراً إلى رسوم الحرّية، أن يترقّب الفرصة التي تمكّنه من شراء حصان. فالعربة أو العجلة التي يتم جرّها، لا تتفوق على الحصان المركوب. ومن يريد الوصول إلى كل الأمكنة، لا يصل إلى أي مكان.

بقي، مع مرور السنين، حاد الذهن وطويل الصبر، حتى عندما أخذت آماله في الخفوت. ثم توفي جاكوب فارك، واعتمدت أرملته كثيراً عليه وعلى ويلارد، ودفعت لهما أجراً. وقد جمع، في أربعة أشهر، ١٦ شلناً، ويمكن أن تضمن له أربعة جنيهات، وربما أقل، الحصول على حصان. وعندما تتم إضافة رسوم الحرية - بضائع أو محصول، أو نقود تبلغ ٢٥ جنيهاً (أو إنها عشرة؟)- فإن سنوات الاسترقاق بسبب الدين تكون قد أجدت نفعاً. فهو لا يريد قضاء حياته باحثاً وحسب عن شيء يأكله ويحبه. لكنه لم يفعل، في غضون ذلك، ما يزعج السيدة فارك أو يعطيها سبباً لصرفه. اضطرب عندما تنبأ ويلارد بزواجها السريع، إذ يمكن أن يتولّى المزرعة زوج جديد يجري ترتيبات مختلفة جدّاً لا تتضمّنه. إن فرصة العمل بين النساء عادت بالنفع عليه وعلى ويلارد. فمهما يكن عدد النساء كبيراً، ومهما كنّ مجتهدات، فإنهن لا يقطعن أشجاراً علوّها ستون قدماً، ولا يبنين الحظائر، ولا يصلحن الأسرجة، ولا يذبحن العجول أو يفتكن بها، ولا يحذين الفرس، أو يصطدن.

لذلك بذل، وهو يشاهد المجافاة التي تنشرها السيّدة، ما في وسعه لإرضائها. وعندما ضربت سورّو، وأزالت أرجوحة لينا، ووضعت إعلاناً لبيع فلورنس، انقبض على نفسه، لكنه لم يقل شيئاً. ليس لأن ذلك ليس من شأنه فحسب، بل أيضاً لأنه صمّم على التخلّص من العبودية إلى الأبد، ولأن المال يشكّل ضمانة لذلك. إلا أنه حاول سرّاً التخفيف من الأذى الذي تنزله السيّدة ما أمكنه ذلك. جهّز صندوقاً لطفل سورّو، وبطّنه بجلد الخروف. بل إنه مزّق الإعلان الملصق في القرية (لكنه أغفل ذلك الموجود في محل العبادة). لكن لينا أصبحت لا تُقارب. لا تطلب شيئاً، وتُحجم عن قبول كل ما يُقدّم إليها. ولا يزال برميل الجبن الذي صنعه مع ويلارد ملفوفاً بالقماش في غرفة العلّية، حيث باتت تنام الآن.

تلك كانت أضرار وفاة فارك، وعاقبة النساء اللواتي يتحكّم فيهن الرجال، أو اللواتي هن بدونهم؛ أو أن هذا ما استنتجه. فهو لا يملك برهاناً على ما يدور في أذهانهن. لكنه متيقّن، استناداً إلى خبرته الخاصة، من أن الخيانة هي سمّ اليوم.

والأسفاه.

اعتقدوا في السابق أنهم يشكّلون نوعاً من العائلة لأنهم صنعوا معاً من العزلة صحبة. لكن العائلة التي تصوّروا أنهم أصبحوها، كانت زائفة. ومهما كان ما أحبه كل منهم، وسعى إليه أو هرب منه، فإن مستقبلهم منفصل وعرضة لتكهنات الجميع. ثمة أمر واحد مؤكّد هو أن الشجاعة وحدها لا تكفي.

وهو لا يرى في الأفق بعد ما يوحدهم، باستثناء رابطة الدم. وبرغم ذلك، فإن سكالي، وقد استذكر كيف أن معاون الكاهن وصف ما كان موجوداً قبل الخلق. ثمة مادة مظلمة، كثيفة، لا تدركها معرفة، تتحرّق شوقاً إلى تحوّلها إلى عالم.

ربما ما يتقاضاه سكالي والسيد بوند ليس بالقدر الذي يتقاضاه الحدّاد، إلا أنه كافٍ لتخيّل مستقبلٍ ما.

مشيتُ الليل بطوله. الأمر شاق بدون جزمة السيّد. يمكنني، عندما أضعها، أن أجتاز مجرى ساقية حجرياً، وأن أتحرّك سريعاً عبر الغابات وأنزل تلالاً من القرّاص. ما أقرأه أو أفك رموزه، بات الآن غير ذي فائدة: رؤوس كلاب، أفاعي حدائق، لا معنى لذلك كلّه. لكن طريقي واضح بعد خسارتك أنت الذي طالما اعتبرتك حياتي وحمايتي من الأذى من أي واحد ينظر إلي عن كثب ليرميني بعيداً وحسب؟ من جميع الذين يعتقدون أن لديهم حقوقاً وسيادة عليّ. أنا بالنسبة إليك لا شيء. تقول إنني أرض جدباء. أنا كذلك. أهذه رجفة في فمك، في عينيْك؟ أخائف أنت؟ يفترض بك ذلك. أصابت المطرقة الهواء مرات عدّة قبل أن تصل إليك وقد تلاشت من الضعف. انتزَعتَها من يدي ورميتها بعيداً. ملايك يصرخ. سحبتَ يدي إلى خلفي. استدرتُ وهربت منك. الكلاّبات هناك، على مقربة، على مقربة. وأنا أترنّح، وأترنّح بقوّة. ولما رأيتك تترنّح وتنزف، هربت. انفصل طوف جليدي عن ضفة النهر في عز الشتاء. ليس لديّ حذاء. ليس لي قلب ينبض. لا منزل، لا غد. سرت طوال النهار. سرت طوال الليل. أطبق الريش، في الوقت الحاضر.

مضت ثلاثة أشهر على هروبي منك. لم يسبق لي أبداً أن شاهدت الأوراق تصنع هذا الكم من الدم والصفار. ألوان فاقعة جداً إلى درجة أنها تؤذي العين. وعليّ، للاستراحة، أن أحدّق عالياً في السموات فوق خط الأشجار. وفي الليل، عندما تفسح إشراقة النهار في المجال للنجوم التي تغطي كالجواهر السماء السوداء الباردة، أترك لينا نائمة وآتي إلى هذه الغرفة.

عليك، إذا كنت حياً أو إذا شُفيت تماماً، أن تنحني لقراءة روايتي، وتزحف، ربما، في بعض الأماكن. أعتذر على الإزعاج. أحياناً ينزلق رأس المسمار بعيداً ويصبح تشكيل الكلمات مشوّشاً. لا يحب الأب المحترم ذلك أبداً. يضربنا على أظفارنا ويجعلنا نعيد الكرّة. تأكّدت في البداية، عندما جئت إلى هذه الغرفة، من أن الكتابة ستمدني بالدموع التي لم أعرفها أبداً. لكنني مخطئة. العيون جافة. لا أتوقف عن الكتابة إلا عندما ينطفئ السراج. أنام عندها وسط كلماتي. تستمر الكتابة بدون أحلام، ويستغرق الأمر، عندما أفيق، وقتاً للتنحّي، ومغادرة هذه الغرفة، والقيام بالمهام. مهام لا معنى لها. تنظف إبريق الغرفة، لكننا لا نستعمله أبداً. نبني صلباناً مرتفعة للقبور في المرجة ثم ننتزعها، نقطعها لتصبح أقصر ثم نعيدها. ننظف المكان الذي توفي فيه السيّد، لكن لا يمكننا أن نوجد في أي مكان آخر من هذا المنزل. تحكم العناكب سعيدة هنا، ويصنع أبو الحنّ أعشاشه بسلام. يدخل كل أصناف الحياة من النافذة إلى جانب الريح القارسة. داريتُ شعلة السراج بجسمي، وتحمّلت صقيع عضّة أسنان الريح، كما لو أنه لا طاقة للشتاء

على الانتظار لدفننا. ليست السيدة على دراية بمدى صقيع البيوت الملحقة، كما أنها لا تتذكّر ما يفعله برد الليل الشديد بطفل. شفيت السيّدة، لكنها ليست بخير. قلبها جاحد. اختفت جميع الابتسامات. وفي كل مرّة تعود من بيت العبادة، تصبح عيناها في لا مكان، ولا باطن لهما. تنظر عينا السيدة، على غرار عيون النساء اللواتي تفحّصنني وراء باب الغرفة الصغيرة، والذي تراه لا يعجبها. ثوبها قاتم وغير زاهٍ. تصلّي كثيراً. تحملنا جميعنا، لينا، سورّو وابنتها، وأنا، على أن ننام، مهما تكن حالة الطقس، إما في زريبة البقر، وإما في غرفة التخزين، حيث يوجد الآجرّ والحبال وجميع أنواع نفايات البناء. تقول إن النوم في الخارج للمتوحشين، وبالتالي لا مزيد من المضاجع المعلّقة تحت الشجر للينا حتى في الطقس الجيّد. ولا موقد أبداً لسورّو وطفلتها لأن السيدة لا تحب الطفلة. وقد آوت سورّو نفسها والطفلة، في إحدى ليالي المطر الجليدي، وراء باب الطابق الأسفل في الغرفة التي توفّي فيها السيّد. صفعتها السيّدة، مرّات عدة، على وجهها. وهي لا تعرف أنني آتي إلى هنا في كل ليلة، وإلا لكانت تجلدني أيضاً لكونها تؤمن بمتطلبات تقواها. بدّلها ذهابها إلى الكنيسة، لكنني لا أعتقد أنهم يطلبون منها التصرّف على هذا النحو. فهذه القواعد من وضعها، وهي لم تعُدْ نفسها. يقول سكالي وويلارد إنها تعرضني أنا للبيع. لكن ليس لينا. أرادت وهب سورّو، لكن لم يعرض أحد عليها أخذها. فسورّو أمّ، لا أكثر ولا أقل. أحِبُّ تكريس نفسها لطفلتها. لم تعد تُدعى سورّو. لقد غيّرت اسمها وتخطط للهرب. تريدني أن أذهب

معها، لكن لدي أموراً أنهيها هنا. الأسوأ هو كيفية تعاطي السيّدة مع لينا. تطلب منها أن ترافقها في الطريق إلى الكنيسة، لكنها تُجلسها على الطريق، في جميع حالات الطقس، لأنه لا يمكنها الدخول. لم يعد في وسع لينا الاستحمام في النهر، وعليها أن تزرع وحدها. لم أعد أسمع أبداً أحاديثهما السابقة وضحكهما معاً، وهما تعتنيان بالحديقة. تريد لينا أن تقول لي، وتذكّرني بأنها حذّرتني في السابق منك. لكن أسبابها في التحذير تجعل من التحذير نفسه خاطئاً. أتذكّر ما قلتَه لي منذ زمن طويل قبل وفاة السيّد. قلتَ إنك ترى العبيد أكثر حرّية من الرجال الأحرار. الأول أسد بثوب حمار. والآخر حمار بثوب أسد. والامتهان الداخلي هو الذي يستعبد ويفتح الباب أمام ما هو جمعي. أعرف أن همجيتي وُلدت في غرفة الأرملة الصغيرة. أعرف أن مخالب الطير هاجمتك لأنني لم أستطع منع رغبتها في تمزيقك بالطريقة التي مزّقتني بها. يبقى أن ثمة أمراً آخر. أسد يعتقد أن لبدته هي كل شيء. ولبوة لا تعتقد ذلك. تعلّمت هذا من الابنة جاين. لم توقفها ساقها الدامية. خاطرت. خاطرت بكل شيء، لإنقاذ العبدة التي رميتَ بها بعيداً.

لم يعد يوجد متسع في هذه الغرفة. فهذه الكلمات تغطّي الأرضية. ستضطر منذ الآن إلى الوقوف لسماعي. الجدران تثير المشاكل لأن ضوء السراج ضعيف جداً للرؤية من خلاله. أحمل الضوء بيد، وأحفر الرسائل بالأخرى. ذراعاي تؤلمانني، لكنني أحتاج إلى أن أخبرك بهذا. لا يمكنني قوله لأحد غيرك. أنا إلى جانب الباب وقد قاربت النهاية الآن. ما الذي سأفعله بلياليّ

عندما تنتهي الرواية؟ لن تعاودني الأحلام. وها أنا أتذكّر فجأة، أنك لن تقرأ ما أرويه. أنت تقرأ العالم، لكن ليس حروف الكلام. لا تعرف كيف. ربّما تتعلّم في أحد الأيام. وإذا فعلت، فتعالَ إلى هذه المزرعة من جديد. فرّق بين أفاعي البوابة التي صنعت. ادخل هذا المنزل الكبير المريع. اصعد الأدراج وادخل، في ضوء النهار، الغرفة الحاكية هذه. وإذا لم تقرأ هذا أبداً، فلن يفعله أحد. تلك الكلمات المُعتنى بها، المنغلقة والمفتوحة على مصراعيها، ستتحدّث إلى نفسها. تدور وتدور، من جانب إلى آخر، من الأسفل إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأسفل عبر الغرفة. أو، أو ربما لا. ربما تحتاج هذه الكلمات إلى الهواء الموجود في العالم خارجاً. تحتاج إلى الصعود طائرة ومن ثم تسقط، تسقط كالرماد فوق فدادين من أزهار الربيع والخبيز. فوق بحيرة فيروزية، في ما وراء الشوكران المستديم، عبر غيوم يشقها قوس قزح، وتطيّب تراب الأرض. ستقدّم لينا المساعدة. فهي تجد الرعب في هذا المنزل، ومهما احتاجت إلى أن تكون لازمة للسيدة، فأنا أعلم أنها تحب النار أكثر.

أترى؟ أنت محق. والأم التي لي محقة أيضاً. إنني أصبح قفراً، إلا أنني فلورنس أيضاً. لا تُسامَح، ولا تُسامِح. لا شفقة، يا حبّي، بتاتاً. أتسمعني؟ عبدة. حرّة. أنا أبقى.

يبقى لديّ حزن واحد. إنني، كل هذا الوقت، لا أعلم ما الذي تقوله والدتي لي. كما أنها لا تعرف ما الذي أريد قوله لها. أمي، يمكنك أن تغتبطي الآن، لأن باطن قدمي قاسٍ كشجر السرو.

معها، لكن لدي أموراً أنهيها هنا. الأسوأ هو كيفية تعاطي السيّدة مع لينا. تطلب منها أن ترافقها في الطريق إلى الكنيسة، لكنها تُجلسها على الطريق، في جميع حالات الطقس، لأنه لا يمكنها الدخول. لم يعد في وسع لينا الاستحمام في النهر، وعليها أن تزرع وحدها. لم أعد أسمع أبداً أحاديثهما السابقة وضحكهما معاً، وهما تعتنيان بالحديقة. تريد لينا أن تقول لي، وتذكّرني بأنها حذّرتني في السابق منك. لكن أسبابها في التحذير تجعل من التحذير نفسه خاطئاً. أتذكّر ما قلتَه لي منذ زمن طويل قبل وفاة السيّد. قلتَ إنك ترى العبيد أكثر حرّية من الرجال الأحرار. الأول أسد بثوبِ حمار. والآخر حمار بثوب أسد. والامتهان الداخلي هو الذي يستعبد ويفتح الباب أمام ما هو همجي. أعرف أن همجيتي وُلدت في غرفة الأرملة الصغيرة. أعرف أن مخالب الطير هاجمتك لأنني لم أستطع منع رغبتها في تمزيقك بالطريقة التي مزّقتني بها. يبقى أن ثمة أمراً آخر. أسد يعتقد أن لبؤته هي كل شيء. ولبوة لا تعتقد ذلك. تعلّمت هذا من الابنة جاين. لم توقفها ساقها الدامية. خاطرت. خاطرت بكل شيء، لإنقاذ العبدة التي رميتَ بها بعيداً.

لم يعد يوجد متسع في هذه الغرفة. فهذه الكلمات تغطّي الأرضية. ستضطر منذ الآن إلى الوقوف لسماعي. الجدران تثير المشاكل لأن ضوء السراج ضعيف جداً للرؤية من خلاله. أحمل الضوء بيد، وأحفر الرسائل بالأخرى. ذراعاي تؤلمانني، لكنني أحتاج إلى أن أخبرك بهذا. لا يمكنني قوله لأحد غيرك. أنا إلى جانب الباب وقد قاربت النهاية الآن. ما الذي سأفعله بلياليّ

عندما تنتهي الرواية؟ لن تعاودني الأحلام. وها أنا أتذكّر فجأة، أنك لن تقرأ ما أرويه. أنت تقرأ العالم، لكن ليس حروف الكلام. لا تعرف كيف. ربّما تتعلّم في أحد الأيام. وإذا فعلت، فتعالَ إلى هذه المزرعة من جديد. فرّق بين أفاعي البوابة التي صنعت. ادخل هذا المنزل الكبير المريع. اصعد الأدراج وادخل، في ضوء النهار، الغرفة الحاكية هذه. وإذا لم تقرأ هذا أبداً، فلن يفعله أحد. تلك الكلمات المُعتنى بها، المنغلقة والمفتوحة على مصراعيها، ستتحدّث إلى نفسها. تدور وتدور، من جانب إلى آخر، من الأسفل إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأسفل عبر الغرفة. أو، أو ربما لا. ربما تحتاج هذه الكلمات إلى الهواء الموجود في العالم خارجاً. تحتاج إلى الصعود طائرة ومن ثم تسقط، تسقط كالرماد فوق فدادين من أزهار الربيع والخبيز. فوق بحيرة فيروزية، في ما وراء الشوكران المستديم، عبر غيوم يشقها قوس قزح، وتطأ تراب الأرض. ستقدّم لينا المساعدة. فهي تجد الرعب في هذا المنزل، ومهما احتاجت إلى أن تكون لازمة للسيدة، فأنا أعلم أنها تحب النار أكثر.

أترى؟ أنت محق. والأم التي لي محقة أيضاً. إنني أصبح قفراً، إلا أنني فلورنس أيضاً. لا تُسامَح، ولا تُسامِح. لا شفقة، يا حبّي، بتاتاً. أتسمعني؟ عبدة. حرّة. أنا أبقى.

يبقى لديّ حزن واحد. إنني، كل هذا الوقت، لا أعلم ما الذي تقوله والدتي لي. كما أنها لا تعرف ما الذي أريد قوله لها. أمي، يمكنك أن تغتبطي الآن، لأن باطن قدمي قاسٍ كشجر السرو.

لن يريد أي منهما أخاك. أعرف أذواقهما. يوقّر الثديان لذّة أكثر من أشد الأمور بساطة. وثدياك يبرزان بأسرع مما يجب، ويزعجهما القماش الذي يغطي صدرك، الذي هو صدر فتاة صغيرة. وهما يريان، وأنا أراهما. لن يبيع ذلك بأي خبز حتى لو قدّمتك إلى واحد من فتيان الحارة، فينو، تذكرينه. إنه اللطيف مع الأحصنة، الذي يلعب معك في الساحة. حفظت له القشور والخبز الحلو ليأخذه للآخرين. عرفت والدته، بيس، ما يجول في ذهني ولم تعارض. تراقب ابنها كالصقر، كما أراقبكِ. لكن ذلك لا يأتي أبداً بأي فائدة دائمة، يا حبّي. لا توجد أي حماية. ولا واحدة. ليس، بالتأكيد، مع إصابتك بآفة الأحذية. بدا الأمر كأنك تستعجلين ثدييك وتستعجلين أيضاً ما تنطقه شفاه عجوزين متزوجين.

افهميني. لم توجد أي حماية، ولا شيء في كتاب التعليم الديني يسمح بالقول لهما: لا. حاولت إخبار الأب المحترم. أملت أننا لو تعلّمنا الحَرْفَ فستتمكنين يوماً ما، بطريقة ما، من أن تشقّي طريقك. فاض الأب المحترم لطافة وشجاعة، وقال

إنها مشيئة الله، ولا هَمّ إذا غرّموه، أو سجنوه، أو طاردوه بنيران البنادق، كما طاردوا كهنة غيره ممن علّمونا القراءة. اعتقدَ أننا سنحبّ الله أكثر إذا عرفنا أحرف القراءة. أنا لا أعرف ذلك. ما أعرفه هو أن في العلم سحراً.

عندما جاء الرجل ذو الشعر الأصفر للغداء، رأيت أنه كره الطعام، وشاهدت أموراً في عينيه تقول إنه لا يثق بالسنيور، أو السنيورة، أو ابنيهما. فكّرت في أن نهجه مختلف. بلاده بعيدة من هنا. لا يوجد في قلبه حيوان. لم ينظر إليّ أبداً بالطريقة التي ينظر بها السنيور إليّ. لم يرغب.

لا أعلم من هو والدك. كانت الظلمة أكثر من يسمح لي برؤية أي منهم. جاؤوا ليلاً وأخذونا ثلاثتنا، بمن فينا بيس، إلى كوخ العلاج. جَلَسَتْ ظلال رجال على البراميل، ثم وقفت. قالوا إنه طلب منهم أخذنا عنوة. ليس هناك من حماية. كونك امرأة في هذا المكان، أشبه بكونك جرحاً مفتوحاً لا يمكن أن يشفى ويندمل. يبقى التقيّح دائماً في الأسفل، حتى لو تشكّلت الندوب.

جرى تبادل الشتائم، ذهاباً وإياباً، ولمواسم عدة بين ملك عائلاتنا وملك الآخرين. أعتقد أن الرجال يترعرعون على الشتائم في شأن الأنعام، والنساء، والماء، والمحاصيل. احتدم كل شيء، وانتهى الأمر برجال عائلاتهم أن أحرقوا منازلنا وجمعوا من لم يمكنهم قتلهم أو العثور عليهم لبيعهم. تم تقييد بعضنا ببعض بالحبال، ونُقلنا أربع مرات، وفي كل مرّة المزيد من

المتاجرة، والمزيد من الاستعراض للانتقاء، والمزيد من الموت. ازداد عددنا، أو نقص، إلى سبعين ضعفاً ربما، أو مئة ضعف، عندما تم سوقنا إلى إحدى حظائر الحبس. هناك شاهدنا رجالاً اعتقدنا أنهم مرضى أو موتى. وسرعان ما علمنا بأنهم ليسوا أياً من ذلك. بشرتهم تصيب بالارتباك. فالرجال الذين يحرسوننا أو يبيعوننا سود. اثنان منهم يرتديان قبعتين ويضعان قطع قماش غريبة على عنقيهما. أكدوا لنا أن الرجال البيض لا يريدون أكلنا. وبرغم ذلك استمرّ بؤسنا كاملاً. أخذنا نغنّي أحياناً. وأحياناً أخرى نقاتل. وفي معظم الأوقات ننام أو ننتحب، ثم قام الرجال البيض بتقسيمنا ووضعونا في قوارب خفيفة. بلغنا منزلاً مصنوعاً ليعوم في البحر. توجد كلاب البحر تحت كل ماء، نهراً كانت أم بحراً. حرَسَنا الرجال البيض بشدّة تعادل سعادة كلاب البحر في امتلاك مكان مليء بالغذاء.

رحّبتُ بكلاب البحر المحيطة، لكنها تفادتني كما لو أنها تعرف أنني أفضّل أسنانها على السلاسل حول عنقي وخصري ورسغيْ قدمي. عندما انكفأ القارب الخفيف، قفز بعضنا، وتم سحب البعض الآخر إلى الأسفل، ولم نشاهد دماءهم تجري كالدوّامة إلى أن سُحب الأحياء منا، ووُضعنا تحت الحراسة. نُقلنا إلى المنزل العائم على البحر، وشاهدنا للمرة الأولى الجرذ وصعب تصوّر كيفية الموت. حاول بعضنا ذلك، وفعله البعض الآخر. رفضنا تناول البطاطا الحلوة المزيّتة. خنقنا أعناقنا. قدّمنا أجسامنا إلى كلاب البحر التي تبعتنا، ليلاً ونهاراً، طول الطريق. عرفتُ أن لذتهم تقضي بتنشيطنا بضربة سَوط، إلا أنني رأيت

أيضاً أنهم يلتذون بضرب جماعتهم بالسَّوط. اللامعقول يحكم هنا. من يحيا ومن يموت؟ من يمكنه التكلّم في ذلك الأنين والنواح في الظلمة، في الهول؟ إنها لمسألة أن يعيش المرء في قاذوراته، لكنها مسألة أخرى أن يحيا في قاذورات غيره.

سمعتهم يقولون باربادوس. ومرّة تلو مرّة من إعمال الفكر في شأن عدم قدرتي على الموت كالآخرين، وبعد تظاهري بأنني كذلك كي يتم الإلقاء بي عن السطح، فإنه مهما خطّط العقل له تبقى للجسم اهتمامات أخرى. وهكذا بلغنا باربادوس حيث وجدتُ فرجة في الهواء النقي وفي الوقوف، منتصبة تحت سماء لها لون الدبار. كنت ممتنة لحرارة الشمس المألوفة بدلاً من الأبخرة الحارة المتصاعدة من الأجساد المكوّمة؛ وممتنة أيضاً للأرض التي تستند إليها قدماي غير مباليتين بالسجن الذي أتقاسمه مع الكثيرين. السجن أصغر من حمولة السفينة التي أبحرت بنا. جعلونا، واحدنا تلو الآخر، نقفز، وننحني، ونفتح أفواهنا. كان الأطفال أفضلنا في هذا. قفزوا، مثل العشب الذي داست عليه الفيلة، لتجربة الحياة من جديد. توقّفوا منذ وقت طويل عن النواح. وها إنهم، بعيونهم المتسعة، يحاولون الإرضاء، وإظهار قدرتهم، وبالتالي قيمتهم الحيّة. كم أن نجاتهم غير مرجّحة. وكم من المرجّح أن يأتي قطيع آخر لتدميرهم. قطيع رجال أسنانهم كبيرة يتناولون بأصابعهم أقفال السياط. احمرّ الرجال بالشهوة الجامحة. أو، كما عرفت، دمّرتهم حياة الأرض القاتلة في مزرعة قصب السكّر التي جيء بنا إليها لجني محصولها. أفاعٍ، عناكب سامة، عظاءات يسمّونها تماسيح. كنت

أتصبّب عرقاً، لفترة قصيرة وحسب، بين قصب السكّر عندما أخذوني بعيداً للجلوس على مصطبة تحت الشمس. هناك، تعلّمت أنني لست شخصاً له بلد أو عائلة. فأنا زنجية دميمة. كل شيء. اللغة، اللباس، الآلهة، الرقص، العادات، الزينة، الغناء، ذلك كله مطبوخ معاً بلون بشرتي. وهكذا، اشتراني السنيور، بوصفي سوداء، وأُخذت من مزرعة القصب وشُحنت شمالاً، إلى مزارع التبغ التابعة له. حل الأمل حينذاك. لكن حصل الجماع أولاً. أُخذنا عنوة أنا وبيس وواحدة أخرى في كوخ الشفاء. اعتذر بعد ذلك الرجال الذين طُلب إليهم أخذنا بالقوة. وأعطى أحد المشرفين برتقالة لكل منّا. لا بأس في الأمر. كان الأمر جيّداً في المرّتين، لأن النتيجة كانت أنتِ وشقيقك. ثم إنه كان هناك السنيور وزوجته. شرعت في إخبار الأب المحترم، لكن الخجل حوّل كلامي إلى هراء. لم يفهم، أو أنه لم يصدّق. طلب مني ألا أيأس أو يخور قلبي، بل أنْ أحب الله ويسوع المسيح بكل جوارحي؛ أن أصلّي لخلاصي في يوم الدينونة؛ وأنه مهما قد يقوله الآخرون، فأنا لست حيواناً بدون روح، أو لعنة؛ وأن البروتستانت ضالون وخاطئون، وإذا بقيتُ طاهرة الذهن والفعل، فسيتم الترحيب بي في ما وراء وادي هذه الحياة المفجعة لأدخل الحياة الأبدية، آمين.

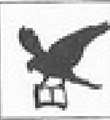
لكنك أردت حذاء امرأة متفلّتة، وقطعة القماش حول صدرك لم تؤتِ نفعاً. اجتذبتَ نظر السنيور. بعدما تناول الرجل الطويل الغداء وانضم إلى السنيور في سيره عبر المساكن، كنت أغني عند المضخّة، أغنية عن عصفور أخضر يقاتل ثم يموت عندما

سرق القرد بيوضه. سمعت صوتيهما، فجمعتك أنت وشقيقك للوقوف أمام ناظريهما.

فكرّت في أن ثمة فرصة واحدة. لا توجد حماية بل ثمة فارق. وقفتِ هناك بذلك الحذاء فضحك الرجل الطويل، وقال إنه سيأخذني لإيفاء الدَّيْن. عرفتُ أن السنيور لن يسمح بذلك. فقلتُ أنتِ؛ أن يأخذكِ أنت يا ابنتي، لأنني شاهدت الرجل الطويل ينظر إليك كطفلة إنسانية، وليس كقطع نقود إسبانية. ركعتُ أمامه آملة حصول معجزة. وقال: نعم.

لم تكن معجزة أنعم بها الله، بل هي رحمة، قدّمها كائن بشري. بقيت على ركبتيّ في الغبار، حيث سيظل قلبي في كل ليلة وفي كل نهار، إلى أن تدركي ما أعرفه وأتوق إلى أن أخبرك إياه: إنه لأمر شاق أن يُعطى المرء سيطرة على امرئ آخر. وأنه لأمر خاطئ مقاومة سيطرة من أجل سيطرة أخرى. وأن تعطي السيطرة على نفسك لشخص آخر فهذا فعلٌ آثم.

آه، يا فلورنس. يا حبّي. اسمعي كلام الأم التي لك.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاج كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- فيرونيكا تقرر أن تموت
- الزهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابع يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا
- ألِف

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروغ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة

- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها - هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر - د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ - ناتج سارتا

جين ساسون

- مغامرة حب في بلاد ممزقة
- سموّ الأميرة
- بنات سموّ الأميرة
- لأنك ولدي
- حلقة الأميرة سلطانة

منى دايخ

- طلاق الحاكم
- إيزيس في القدس
- برج أنثوي
- غزل العلوج

راوي الحاج

- مصائر الغبار
- الصرصار

روحي طعمة

- لا أحد يفهم ما يدور الآن
- امرأة للشتاء المقبل



طلال حيدر

عصام محفوظ



